سلسلة أوراق من التاريخ

١١

صور أندلسيّة من التّاريخ

شاكر مصطفى



ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ــ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ــ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

صور أندلسية من التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

١١

صور أندلسيّة من التّاريخ

شاكر مصطفى

صور أندلسية من التاريخ / شاكر مصطفى . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٦ . ــ
١٣٦ص ؛ ٢٠سم . ــ (سلسلة أوراق من التاريخ ؛ ١١) .

١ ــ ٩٥٦,٠٧١ م ص ط ص ٢ ــ ٩٢٠ ع م ص ط ص ٣ ــ العنوان
٤ ــ مصطفى ٥ ــ السلسلة .
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٦/١/١٨ رقم الإصدار ٦٩٥

رقم : ٢٦٦٩٩
تاريخ : ١٩٩٥/١٢/٢

كلمة أولى

لماذا تستعصين على النسيان
أيتها الأندلسية ذات المشط العاجي ؟
بعيون سوداء ...حزينة كالليل تنظرين إلينا
وبالتنورة المزركشة والصدر المفتوح وإيقاع الكعوب ترقصين للناس
ما إن أتذكرك حتى يضج في خاطري ألف مهرجان
وتنتزل الكلمات من الكتب لتدرج بشراً سوياً يسير على الدروب الضيقة
المدروزة بالياسمين والريحان
ويتدفق في غرناطة نهر إشبيلية الكبير زمرداً وأقماراً .
وترقص الخيل على أسوار قصر الحمراء ...
أيتها الاندلسية !
لماذا تستعصين على النسيان ؟



صفحات أندلسية

الأندلس ! حلم حلمت به الأرض الإسبانية فترة ثم انقضى كما جاء . وهي بالنسبة للتاريخ العربي أغنية عرس ، وتنهيدة ، ومهرجان ، والناس حين يذكرونها يذكرون الشعر والموشحات ورقص السماح ...والتنانير تلوح كالفراشات المجنحة في قطعة ذهبية من الفردوس ...وما يزال أحدنا يحس حين يذكر الأندلس بغصة آدم ومرارته حين أخرج من الجنة .

وقد تمنيت حين مر في خاطري التحدث عن الأندلس أن لا أتحدث إلا عن الشعر والزهر ورفة الأحلام فيها . فقد كان الشعر وسيلة الخطاب الجميل هناك بين محبين أو صديقين في جميع الأمور ... كان للدعوة وللرقص وللاعتذار ولتقديم الهدية وأوجع الآهات ...وللشتيمة أيضاً . وكان الزهر للمتعة الناعمة ولحمل الرسائل وللغرق في الطبيعة ولأسماء الكتب أيضاً . حتى وإن لم يكن ما بداخلها له رونق الورد !

غير أن التاريخ مع الأسف لا يعترف لا للأندلس ولا لغيرها بهذه الصورة الفردوسية المجنحة . فهي أرض من أرض الله والذين عاشوا عليها كانوا بعضاً من عباد الله . وقد جرى فيها ما يجري في غيرها من التعاسة والدماء والنعيم والبؤس وعبث القتال وزغردة الفرح .ومن البناء والهدم والمؤامرات وقتل الإخوة ولقاء الألوية والبنود وعويل الهزائم ... كل ما عرف التاريخ من الصور في أي أرض عرف فيها وأكثر .

وما كان أهل الأندلس بأحسن ولا بأسوأ من غيرهم . فإن شوهت هذه الأندلسيات التي سوف نتحدث بها أو زخرفت الصور فالأمر أمام التاريخ

سـواء . إنه تاريخ بشـر لبشر !! وحين جاء في كتاب الله قوله تعالى مخاطباً الملائكة إني جاعل من الأرض خليفة ، وقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدماء ﴾ لم يجر استثنـاء قوم ولا استبعـاد أرض . فهذه المسـيرة الحيوانية ـــ الإنسـانية التي نسميها تاريخ الإنسـان تحمل ـــ أنى سـارت ـــ نوازعها وشياطينها وأروع نبلها وأخس دناءاتها معها على كل الدروب !

والأندلس لم تبق ضمن دائرة الخلافة الإسلامية سوى أقل من أربعين سنة ثم انطلق بها من انطلق لترسم تاريخها المستقل سبعمائة وخمسين سنة . صحيح أنها استمدت القسـم الفاتح من سكانها من المشرق ومن المغرب . وصحيح أيضاً أنها عاشت قرنين أو أكثر تستمد عناصرها الثقافية من بغداد وما اجتمع لبغداد من أنحاء الدنيا يومذاك من العلوم والمعارف . وصحيح أيضاً أن هذا وذاك أعطاها الكثير من ملامح الشرق . ولكنها مع ذلك أعطت هذه الملامح نكهتها الخاصة . أعطتها لونها المميز . أعطتها أندلسيتها الرفافة . فالوجوه إلى السمرة والإباء والأنف الأشـم منا ، ولكنها أندلسية . والرضـاع الفكري كان مستمراً ولكن الانتاج الثقافي كان بدوره أندلسياً ! إن صرخة « أوليه » (الله) التي تنفجر بها الحناجر حين يتمكن مصـارع الثيران من ثوره . أو تنهيدة « الخوندا » التي تنطـلق من أعمـاق المغني وهو ينـثرها على الكعوب الراقصة والتنورة تدور . وتلك الزينات المهاجرة ذهباً وخطوطاً هندسية وتلاوين على جدران الحمراء وبحراتها المتموجة أو في قصر اشبيـلية ذي الجنان أو في جامع قرطبة الذي ما تزال أنحاؤه والجوانب تردد آمين آمين ...كلها منا ولنا . وتحسن وأنت تراها بدمعة في العين وبنهر من الدموع في القلب !...

أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس واستقلوا بها أول الأمر بقوا أكثر من مائتي سنة لا يحملون إلا لقب الأمراء . ثم حملوا لقب الخلافة مدة قرن . وكانت عهود هؤلاء الأمراء والخلفـاء أزهى عصور الأندلس . كان نفوذهم يغطي ثلاثة أرباع الجزيرة الإيبـيرية ويمتد على الحوض الغربي للبحر المتوسط

فهـم سـادته وعلى جنوب فرنسـا كله فهـم أصحـاب الكلمة الأولى فيها والأخيرة ...غزواتهم التي تساند السيادة تجاوزت المئات . المعارك التي خاضوا تركت على كل شبر من فرنسا الجنوبية وإسبانيا زهرة عطر حمراء ...الحاجب المنصور في آخر عصر الخلافة قاد وحده خمسين معركة مظفرة لم يهزم في واحدة منهـا ...هذه الفـترة كلها كانت عصر قرطبة الذهبي وعصر الزهراء والزاهرة .

ثم وقعت الواقعة في عهد هشام المؤيد . كان خليفة من ورق . لهذا مات وعاش ثلاث مرات . وادعى وجوده عنده بعض حكام المناطق وخسفت الأرض بعده بمن فيها فالاندلس أكثر من خمس وعشرين دولة عليها أكثر من خمسة وعشرين أميراً . كل متملك حتى لحصن من الحصون يعلن نفسه أميراً وبعضهم أعلن نفسه خليفة . إنه عصر ملوك الطوائف ، وتعقد تاريخ الأندلس وتعقد . فالحكام كثر والطامعون أكثر والثوار المنتزون أكثر فأكثر . والأحداث تتلاحق بين مدينة وأخرى ، وبين الغالب والمغلوب ، والخلاف على أشبار من الأرض . وكل يدعى وصـلاً بليلى ...ثمانون سنـة استمر هذا العصر الذي بدأت فيه نفسه وهو حركة الإسبان لاسترداد البلاد . أعلنوها صليبية مُرة . ومن ورائهم البابا بقوته الروحية وأوروبا كلها بقوتها المادية ...

صحيح أن عصر ملوك الطوائف وما تلاه من بعده كان أروع عصور الأندلس حضارة وبذخاً وثقافة ودنيا من الدنيا . ولكن كان في الوقت نفسه العصر الذي تقـلصت فيـه الأندلس إلى أقل من النصف . وتناوشتها القوة البربرية الإسبـانيـة هنا وهناك وهي تنكمش وتتراجع في ذعر كالنعجة أمام الذئب !

استجار الأندلسيون يومذاك بالدولة المرابطية التي ظهرت في المغرب الأقصى فـأجـارتهم . ولما انهارت تابعت إجارتهم الدولة الموحدية . وربحت الدولتـان كما خسـرتا الكثير من الوقائع اللاحمة . امتزجت الأشـلاء منهـا

والدماء . فالأشلاء الأندلسية والمغربية في الدروب ...كل الدروب .

ولكن ذلك كان عبثاً . كل الشراسة الأوروبية التي عرفها المشرق أيام الصليبيين الفرنجة دبت عليهم على تلك الدروب مائة وخمسين سنة ...انتهت بتقلص الأندلس كلها إلى دويلة صغيرة في أقصى الجنوب الشرقي . وتعرفونها إنها غرناطة .

هذه الدويلة ، مع ذلك ، وقفت للغزو الصليبي مائتين وخمسين سنة إلى أن سلم أبو عبد الله الصغير مفاتيح قصره قصر الحمراء إلى فرديناند وإيزابيلا ملكة قشتالة ...وانسحب وهو يبكي ...

دموع هذا الراحل الأخير كم كلفت العرب المسلمين يا ترى من الدموع ؟ أما يحق له أن يبكي ؟

معـركــة الفــتـــح

برغم ما نملك من الأخبار المفصلة عن تاريخ الأندلس المعقد ، فإن ضباباً كضباب الأساطير يلف معركة فتح الأندلس ...نظم المؤرخون لها أخبارها حالاً على حال في سلسلة متصلة موضوعة لكن معظمها ملفق ...ولو عرضت على المنطق لبانت هلاهيل . ولكنهم استكانوا إليها وسلموا . فهي التاريخ المدرس المقرر ! ...هل أثرت فضولكم وتحديث معلوماتكم ؟

إذن فلنبدأ بما نتعلم ونعلمه في المدرسة عن هذا الفتح المبين المثير .

ـــ يقولون أولاً إن موسى بن نصير عامل المغرب استعان بسفن استعارها من الحاكم القوطي يوليان ليجتاز البحر وأن هذا الكونت كان غاضباً على مليكه لأنه اغتصب ابنته !

ـــ ويقولون إن موسى أرسل مولاه طارق بن زياد في ثمانية آلاف وأنه نزل البر الأندلسي دون مقاومة .

ـــ ويقولون إنه أحرق السفن التي وصل بها ليقطع أمل رجاله في العودة .

ـــ ويقولون إنه خطب في جيشه فقال : أيها الناس ! البحر وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله من وزرٍ إلا سيوفكم ... وإنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ...الخ الخطبة .

ـــ ثم زحف بجيشه شمالاً فالتقى بجيش القوط المكون من مائة ألف فهزمه وترك ملكهم مجندلاً صريعاً في أرض المعركة ...ويقولون إن موسى بن نصير حسده على النصر فلحق به يوسع الفتح ...

كل هذا الذي يقولون يصلح أن يكون فصولاً في رواية درامية . يصلح

أن يغذي الخيال المسرحي لتمثيلية مؤثرة . ولكن هل هذه هي الحقيقة والذي وقع ؟

أحس بعظام طارق التي دفنت في مكان ما من المشرق تهتز وتعول من الظلم والإنكار . طارق بن زياد مظلوم في هذا الحديث الملفق أبشع الظلم .

ــ قصة المراكب التي استعارها من الكونت يوليان صاحب سبتة ، وهي أربعة لا غير فيما يذكرون غير صحيحة . فقد كان الأسطول العربي قبلها يغزو صقلية وسردانية وجزر الباليار . وكان طارق نفسه حاكماً لطنجة على بحر المجاز بجوار سبتة وكان عنده من المراكب ما يكفي . فما حاجة العرب بأربعة مراكب من يوليان يجتازون بها ممراً بحرياً لا يأخذ ساعة من التجديف ؟ وكيف اتسعت المراكب الأربع لثمانية آلاف محارب معهم الخيل والعدد والسلاح وأعوان الخدمة والخيام ؟ ثم كيف يأمن موسى على ثمانية آلاف جندي في مراكب أجنبية ؟

يجب أن نقرر أن الأسطول العربي هو الذي نقل الحملة . وهذا لا يمنع أن يساهم يوليان فيها بمراكب أربع .

ــ هذه واحدة والثانية أن طارقاً نزل الأندلس في سهولة ويسر . وأبداً ما كان ذلك . لقد قام موسى بن نصير ، قبل أن يغامر بأرواح المسلمين بثلاث محاولات لجس النبض . أغرى الكونت يوليان فقام بغارة على السواحل الإسبانية وعاد محملاً بالغنائم ولم يدفعه لذلك قصة ملفقة حول اغتصاب ابنته فالقوط غير العرب في قضية العرض والاغتصاب . ثم أرسل بعثة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك الخفجي في مائة فارس و ٤٠٠ راجل فنزل عند الجزيرة الخضراء وأغار وعاد بالسبي ثم كانت الحملة الثالثة الاستطلاعية التي قادها طارق من ثمانية آلاف ليعرف مدى استعدادات المملكة القوطية حربياً فيما وراء الساحل . لهذا فوجئ طارق بكثافة جيش القوط حين لقيه واستنجد فأتاه المدد في خمسة آلاف أخرى . ومن الحمق أن نتصور أن موسى بن نصير لم

يكن يعلم من عيونه وجواسيسه ومن العلاقات التجارية مع البر الإسباني مدى القوة العامة للمملكة .!

لقد وصـل طارق البر الإسبـاني ، عند الجزيرة الخضراء أولاً فوجده محروساً أشد الحراسة فقد كانت الغزوات الاستطلاعية قد نبهت الملك القوطي وبعثته على بث الحراس على الشاطئ والبدء في جمع جيشه الكبير لمنع الغزو الممكن . فلم يكن يجهل معنى هذه الاستطلاعات . وعاد طارق لينزل بجنده عند جبل طارق فلقى المقاومة العنيفة فالتف بالليل حول الجبل في أوعر مناطقه وتسلق مع أصحابه على المجاديف وبرادع الدواب ففاجأ الحامية وغنم الموقع الذي حمل اسمه جبل طارق وبنى سوراً حول جنده هناك ظل يسمى سور العرب . وكان هذا أول النصر . ثم أقام قاعدة عسكرية بجوار الجبل مفتوحة على بحر المجاز والمضيق لحماية ظهره وتلقي المعونات . ثم أقام قاعدة ثالثة في موقع مدينـة طريف وجعـل عليهـا طريفـاً نفسـه وأقام الأسوار حول القاعدتين ...ليكون باب النجدات أو الانسحاب مفتوحاً وراءه .

ثم مشى طارق شمالاً فلم يجاوز مائة كيلو متر حتى وجد جيش القوط في انتظاره . وهذا يعني أن ملك القوط حسب حسابه الكامل واستعد له .

وأما الخطبة البـليغة التي ينسبونها لطارق فآسف أني سأخيب ظن الكثيرين وأدمر الصـورة الرائعة لطارق عندهم إذ أشك فيها . فكتلة جنده كانت من البربر الذين لا يفهمون العربية فكيف يخطب فيهم محمساً بلغة لا يفهمون ؟ ثم من أين لطارق مثل هذه البلاغة العربية المتينة ؟ وموضوعها هو الذي يثير الشك أكثر فأكثر فلماذا يحرق طارق السفن ولا يعيدها إلى مواقعها في المغرب وليس بين البرين سوى ساعة من التجديف ؟ وهل يعجزه أن يطلبها من هناك إذا احتاجها ؟ ثم كيف يحرق سفناً لا يملكها وهي فيما يزعمون للكونت يوليان ؟ أضف إلى هذا أن قضية إحراق السفن لم ترد لدى

المؤرخين إلا في القرن السادس الهجري وما بعده فهل عميت عنها أقلام المؤرخين ٥٠٠ سنة ! فلا ذكر ولا خبر !...

ثم كانت المعركة الفاصلة التي حددت مصير الأندلس وفتحتها للمسلمين عند بحيرة تعرف باسم لاخوندا في الكورة التي سماها العرب شذونة . هذا ما يقال ولكن أقوالاً أخرى تذهب بموقع القتال إلى مواضيع أخرى منها وادي نكة (أو بكة) شمال شذونة عند بلدة شريش وآخرون يدورون بالموقع في موضع يعرف بالسواقى ... والواقع أن معركة الفتح لم تكن معركة واحدة ولكن سلسلة من المعارك جرت في عدة مواضع وما كانت في مكان واحد . وكانت معركة اقتتل فيها الطرفان القتال الشديد حتى ظنوا أنه الفناء . ودامت ثمانية أيام في انتقالها من موضع لموضع (من أواخر رمضان حتى الخامس من شوال سنة ٩٣ هـ / سنة ٧١١) وقتل ملك القوط لذريق في من قتل في المعارك وبقيت عظام القتلى في موقعها دهراً طويلاً ! ...

يبقى قولهم إن موسى بن نصير حسد مولاه طارق ولحق به . ويريدوننا على أن نصدق بأن موسى الذي لحق بطارق بعد سنة من الفتح كان يحسده . وهل ينتظر الحاسد سنة ؟ وغير موسى طريق طارق في الفتح فذهب شرقاً ليوسع القاعدة التي يستند إليها وراءه في التحرك . ثم — وهو الأهم — بقى القائدان سنتين يعملان معاً على إتمام الفتح المبين . وهل يكتم الحسد إن وجد حقاً ثلاث سنوات ؟

لقد ظلموا طارقاً وظلموا موسى وشوهوهما فهل من يقيم عنهما هذه الظلامة ؟

ثـورة الـربـض

حين انتشر المذهب المالكي في الأندلس وساد، مزيحاً مذهب الإمام الأوزاعي وغيره علت مكانة الفقهاء المالكيين . وصار مذهبهم المذهب الأوحد . وعليه الأمراء . وأحكامه هي القضاء ورجاله هم فقهاء الدولة الرسميون ! صار سمة من سمات الأندلس بالنسبة لغيرها من بلاد الإسلام التي كانت تسود فيها مذاهب عدة طيلة تاريخهامن قبل .

كان ذلك ما بين أواخر القرن الثاني للهجرة ومطالع الثالث ، أيام أمير الأندلس لهشام وابنه الحكم بن هشام ... ووصل الأمر بفقهاء المالكية أن أصبح سلطانهم الديني في الناس ينافس سلطان الأمير نفسه لا سيما بين العامة والجماهير الكثيرة العدد في قرطبة !

صار هنالك رأي عام ديني . وإذا كان هذا قد يتفق مع التوجهات الدينية لهشام وهو ابن عبد الرحمن الداخل فإنه لم يكن يتوافق مع توجهات الحفيد الحكم . لم يكن بلاطه شبيهاً ببلاط أبيه بالتقوى والعبادة ولا كان الحكم كهشام ... الذي كره إدلال الفقهاء على العرش فأقصاهم بعض الاقصاء ...فامتعضوا . وبدأ تضارب المصالح بين الطرفين ! ... وأحس الأمير أن في يد الفقهاء قوة هي اللعبة الدينية الخطرة التي قد يستجيب لها حتى الجيش فقرر بناء فرق خاصة من العبيد ترتبط به شخصياً بالولاء . وكان بناء هذه القوة يكلف الدولة غالياً ولكنه لم يأبه . فخزانة الدولة جيوب رعاياها . وهكذا اتخذ سلسلة من الإجراءات المالية فرض فيها الضرائب الجديدة على الناس . ولكن الفقهاء الذين كانوا له بالمرصاد اعتبروها ضرائب غير

شرعية ...فلماذا تفرض ضريبة على كل ما يباع في الأسواق حتى الأطعمة ؟ ولماذا لا يترك دفع الزكاة لأمانة صاحب الزكاة ولماذا يعين الموظفون الحكوميون لجبايتها ؟ ولماذا يجبر الناس على دفع الضرائب لما يدخل المدينة أو يخرج منها من السلع.

وانتقل الصدام من مرحلة الكلام إلى مرحلة العنف . وبدأ العامة يشتبكون في خصومات تشتد حدة مع العبيد الصقالبة وهم الجند الجدد الذين جندهم الأمير . كانوا بالنسبة إليهم رمز السلطة المستبدة وكلاليب الضرائب الجديدة . ووقف الفقهاء من هذه الخصومات موقف المؤجج لها والمثير . أفتوا بحق الناس فيها . وأفتوا بخلع الأمير فقد عرف عنه أيضاً الإنهماك في الملذات ...وتطور الأمر فاجتمع أهل العلم والورع في قرطبة أمثال يحيي ابن يحيي الليثي وهو من أصحاب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت بن عبد الجبار الفقيه وغيرهما فثاروا بالحكم وخلعوه وبايعوا بعض قرابته ...

هنا طفح الكيل لدى الأمير لا سيما حين رافق ذلك هيجة من العوام في واحد من أكبر أرباض قرطبة هو الربض الجنوبي المبنى قرب القصر خارج الأسوار والذي يسكنه العامة وجلهم من الحرفيين وصغار التجار ...وتحركت هيجة الناس تحاول الوصول إلى القصر وتهديد الأمير . ولم يفقد الرجل رباطة جأشه . خرج على رأس جنده المماليك وكانوا قد بلغوا خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس وكان يسميهم الخرس لعجمتهم . فأشرف على الحي الثائر ثم أمر بإحراقه جميعاً . وهوت عليه المشاعل وأخذت النار بالأبنية والأكواخ والمساجد والسكان على السواء وتمزق الناس هاربين ! لكنه عاد فأمر بهدم ما أبقت عليه النار من الحي وأصدر أمراً بنفي من كان فيه جميعاً وكانوا بعشرات الألوف.

وأين المنفى ؟ انحدرت جموع الربضيين أرتالاً نحو بحر العدوة المغربية . وعلى الأشرعة انتقلوا إلى سبتة وتابعوا الطريق إلى فاس ...تاركين الأندلس للحكم الذي صاروا يدعونه بالحكم الربضي !!

كانت فاس حياً واحداً محدوداً ، جديد البناء لم يمض على أول حجر فيها عشرون سنة . فبني الربضيون لأنفسهم حياً مجاوراً لها على الطرف الآخر من النهر عرف بحي الأندلسيين وتشكلت فاس بذلك من الحيين المتقابلين : هذا الحي وحي القرويين الآتين من القيروان وظلت كذلك قرنين قبل أن يجمعها سور واحد ...

على أن بعض الربضيين لم ينزلوا في العدوة وتابعوا الطريق على شواطئ البحر المتوسط الجنوبية يبحثون عن موضع أفضل وجده بعضهم في صقلية فنزل . وطال البحث حتى أفضوا إلى الاسكندرية . كانت هذه المدينة يوم وصلوها ، ضائعة الحكم يتحكم بها الآخرين المتنفذون فنزلوها ، وشكلوا فيها عصبية أندلسية واضحة استطاعت في بعض الصدامات أن تخرج أهلها وتحتلها !...

ومن عجيب المقادير أن هذه الجماعة الربضية في الاسكندرية كان لها دور أساسي في التاريخ الإسلامي . وإذا كان الربضيون الذين نزلوا فاس قد أسسوا حياً بقي فيها وكان الذين نزلوا صقلية قد ذابوا في الجموع الإسلامية المحاربة هناك لاحتلال صقلية فالربضيون في الاسكندرية قاموا بفتح لم تحسب له القوى الإسلامية الأخرى حساباً ...

تزعمهم رجل يدعى أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي . وأدار أمور الاسكندرية بنجاح عدة سنوات حتى وصلت جيوش الخليفة المأمون العباسي بقيادة عبد الله بن طاهر إلى مشارف المدينة سنة ٢١٢ تريد جعلها مع مصر تحت خلافته . وحاصر المدينة يفاوض البلوطي الذي لم يكن له من القوة ما يقف به في وجه جيش المأمون ، فقبل الجلاء مع أصحابه ...إلى أين ؟

كانت علاقات الاسكندرية التجارية واشجة مع جزيرة كريت في جنوب اليونان فلم لا يفتح مع أصحابه الجزيرة ؟ وكانت مغامرة يظهر أن البلوطي كان يحسب حسابها من قبل ويجعلها الحل الأخير ...وهكذا تحرك مع

جماعة من الاسكندرية ونزل على كريت فاتحاً ...كانت الجزيرة تتبع بيزنطة وأسطول بيزنطة قوي ضخم . أما حامية الجزيرة فلم تكن بالقوية فما كان أباطرة القسطنطينية فيما يبدو ينتظرون غزوها ...

وأقام البلوطي في الجزيرة حكومة إسلامية دامت ١٥٠ سنة ! توالى فيها على الحكم أربعة من أسرته ...حتى استردها البيزنطيون . بقايا المسلمين فيها ظلت حتى مطالع هذا القرن موجودة أما بقايا الآثار فما تزال هناك قائمة .

من كان يحلم أن ثورة في ربض قرطبة بالأندلس يكون من نتائجها بناء نصف فاس وقيام دولة في كريت الجزيرة البعيدة ؟

الـزهـراء

مما ينسـاه المؤرخون والناس أن العرب المسـلمين بنوا في المناطق التي دخـلوهـا ما يزيد على ٤٩٠ مدينـة جديدة أو مجددة . وما الحديث بالذي يتناولها اليوم ولكننا نقف من هذه المدن على خمس لم تبن ليسكنها الناس ولكن لتكون مدناً ملكيـة . بغداد بناها المنصور لسكنه وسكن حاشيته ثم سكن الناس خارجها وشرقي دجلة منها . القاهرة بناها جوهر الصقلي قصوراً لسيده المعز وبقيت كذلك ما ينيف على مائتي سنة حتى أباحها صلاح الدين الأيوبي للسكن . المهدية في تونس بناها عبد الله المهدي الفاطمي في موقعها الحصين ليـأمن فيهـا على الفـاطميات حسب قوله . وكذلك الأمر في الأندلس بنى الخليفة الأموي الناصر مدينةالزهراء لسكناه ولدواوينه ثم قلّده المنصور ابن أبي عامر فبنى المدينة الخامسة التي نعرفها باسم الزاهرة ...

الزهراء وحدها بين هذه المدن كانت مدينة كالحلم أو هي أبهى . ما إن يقرب الحديث عنها كاتب حتى تأخذ كتابته شكل الشعر وتنتثر الروعة في كل كلمة ويضج السحر .

بنـاهـا في السـفح الجنوبي لجبـل يسمى جبـل عروس على خمسـة كيلومترات من شمال قرطبة وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع اختار الخليفة الناصر مكانها بطول ٢٧٠٠ ذراع وعرض ١٥٢٠ . بنى جامعها في ٤٨ يوماً وعمل فيه من حذاق البنائين كل يوم ألف نسمة بين بناء ونجار وأجير وفرشه بالرخام الخمري كله . وارتفاع صومعته أربعون ذراعاً . وأجرى الماء من جبل قرطبة في قناة جرها على الحنايا المعقودة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم

الصورة بديع الصنعة والروعة لم يشاهد أبهى منه مطلي بالذهب الإبريز وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد يجوز الماء من عجز الأسد إلى فمه فيمجه من فيه في البركة وتسقى من مجاجه جنان القصر كلها ويصب في النهر ما يفيض منها . استغرق صنع ذلك أربعة عشر شهراً .

بدأ العمل في مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ واستمر أربعين سنة توفي خلالها الناصر فأكملها ابنه الحكم المستنصر . أما مباني القصر فاشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة . عدا ثلاثمائة سارية أخرى . من هذه السواري ما جلب من روما ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية . ومصاريع الأبواب كانت تنيف صغارها وكبارها على خمسة عشر ألف باب . وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه بالذهب وكان فيها من الأبنية المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف وقصر الناصر العظيم المسمى بالروضة ، أو دار الروضة . عدا محلات الوحش ومسارح الطيور . ودور صناعية الحرب .

وكان في القصر سطح ممرد مشرف على الروضة . فيه مجلس الذهب لبناته مموهة بعضها بالذهب وبعض بالفضة . وأمامه العجب العجاب من حسن المستشرف ما بين مرمر مستون وذهب موضون وعمد كأنما أفرغت من القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها ... وأما الزخارف والزينة فحدث ولا حرج !

وذكروا أن مبلغ ما كان ينفق في الزهراء كل يوم من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الصخر المصرف في التبليط . وكان يخدم في عمارة الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل . منها أربعمائة للناصر ومن دواب الكرى الراتبة للخدمة الف بغل لكل منها ثلاثة مثاقيل من الذهب كل شهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص ألف ومائة حمل كل ثلاثة أيام

وكان فيها حمامان واحد منهما للقصر والثاني للحاشية . وكان الناصر يقسم موارد الدولة من الكور والقرى ثلاثة أقسام واحد لنفقات الدولة والثاني للجند والثالث للزهراء وهذه الموارد تزيد على خمسة ملايين دينار عدا خمس الغنائم وضرائب السوق ، وقرروا النفقة العامة بما يزيد على سبعة ملايين ونصف مليون دينار ...

وجاء أعوانه بحوض صغير أخضر منقوش مذهب غريب الشكل عليه تماثيل انسانية فنصبه الناصر في البيت الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس : صورة أسد إلى جانبيه غزال وتمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ثم دجاجة وديك وحدأة ونسر ! وكل ذلك من الذهب المرصع بالجوهر ويخرج الماء من أفواهها .

وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين . دخالتهم (أي استهلاكهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل عدا أنواع الطير والحمل والدجاج والحوت « أي السمك ») وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة وأربع عشرة أمرأة ...وعدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وقيل ستة آلاف وسبعة وثمانون . والمرتب اليومي من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة . وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم .

هذه المدينة الملكة لو بقيت لأزرت بالحمراء ، لؤلؤة غرناطة البنائية . إنها لم تعبر فقط عن خصب موارد الدولة ، ولكن عبرت أيضاً عن مدى إرهاف الذوق الأندلسي ومقدار ما بلغه من النعيم والاتقان الفني في القرن الرابع الهجري في ظل الخلافة الأموية .

ومن المؤسف أن هذه المدينة دمرت كلها . كان عمرها في البقاء أقل من عمرها في البناء . قضى الناصر والمستنصر أربعين سنة يبنون فيها ولم تمض

أربعون سنة بعد ذلك حتى كانت جيوش العامة والنهابين تغزوها وتنتهب كل ما فيها حتى خشب السقوف ! فهي حتى اليوم أطلال في أطلال .

يقول أحد المؤرخين ، ومن أعجب ما يروى أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة (لفتنة البربر) وهدمت الزهراء وخلع خليفة وهو هشام المؤيد وولي خليفة وهو المهدي وزالت دولة بني عامر العظيمة وقتل وزيرهم محمد بن عسقلاجة وأقيمت جيوش من العامة ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين ...وهم جند المهدي ...

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال !

مختطف الخلافة

عبد الرحمن الداخل صقر قريش أقام الإمارة في الأندلس لأبنائه الذين لم يجرؤ أحد منهم خلال ١٨٠ سنة أن يتلقب بلقب الخليفة حتى إذا فعلها عبد الرحمن الناصر بعد أن فعلها الفاطميون ووجدت ثلاث خلافات إسلامية : عباسية في بغداد وفاطمية في المهدية بتونس وأموية في قرطبة الأندلس لم تدم هذه الخلافة الأخيرة أكثر من خمسين سنة ونيف واختطفها من الأمويين مغامر ما كان في أصله أكثر من صاحب دكان عند باب القصر يكتب لمن يعن له الكتابة من الخدم والمرافقين للسلطان .

هذا الذي اختطف الحكم عرف في التاريخ باسم المنصور بن أبي عامر ! يمني الأصل وقد سلب الخلافة رسومها وعرشها وتقبيل يدها ومجد حروبها وألويتها سوى اللقب فقد ظل يسمي نفسه الحاجب ! ولعله كان يعني أنه يحجب الخليفة الحقيقي هشاماً المؤيد فلا يظهر عليه أحد !!

وكيف دخل القصر وسيطر ؟

قالوا : احتاجت السيدة صبح والدة هشام إلى من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر فاستحسنته حين كتب ورغبت في تشريفه فولاه الخليفة الحكم زوجها قضاء بعض المواضع ثم ترقى إلى الإشراف على الزكاة والمواريث بإشبيلية وتمكن من قلب السيدة بالهدايا ولم يقصر في خدمة حاجب القصر عثمان المصحفي إلى أن توفي الخليفة الحكم فجاشت الروم فتسلم قيادة جيش انتصر عليهم وتمكن حبه من قلوب الناس ...

هذه مطالع أمر ابن أبي عامر . متسلل إلى القلوب . وفي النفس ما فيها من الطموح البعيد . وكان على ذكاء تآمري غاية في الحدة والتدبير ففرش الطريق إلى المنصب الذي يروق له بعدد من القتلى قتل بعضهم بنفسه . ووثب على أكتافهم . كان هشام بن الحكم المستنصر حين توفي والده ولداً في الثانية عشرة من العمر . وكان العبيد الصقالبة قوة كبيرة في القصر فحاولوا تحويل الخلافة من هشام الصغير إلى عمه المغيرة . وغضبت السيدة صبح والمصحفي ورجل القصر المدلل ابن أبي عامر ودبروا قتل المغيرة . قتله ابن أبي عامر نفسه حمية للطفل هشام وإرضاء لأمه في الظاهر ولم تمض سنة على ذلك حتى انكشفت مطامعه على وجهها . كان العبيد الصقالبة ٨٠٠ أو يزيدون فنكبهم وأخرجهم من القصر ثم كان المصحفي هو العقبة بين ابن أبي عامر والمنصب الأعلى فدبر مصرعه . اتهمه باتهامات عدة وبأصله الوضيع فهو ابن مؤدب صبيان وسجنه وحاكمه وانتهى ؛ إلى أن قتل . وتسلم الطامع الحجابة بتأييد السيدة صبح والدة الخليفة . ثم حجر على الخليفة الصغير فلا يزوره أحد إلا بإذنه وحال بين صبح نفسها وبين ممارسة أي نشاط سياسي . وأقبل خلال ذلك على كبار الحاشية يضرب الواحد بالآخر في تدبير إبليسي محكم ، وبعد أن استعان بالمصحفي على الصقالبة ، وبغالب صاحب مدينة سالم على المصحفي ، استعان بجعفر بن علي الأندلسي على غالب هذا فأزاحه من الدرب . ثم بعبد الرحمن بن هشام التجيبي على جعفر ... في تصفيات ملؤها الحزم والكيد والجلد . ولم يكتف بذلك بل أقبل على الجيش فجند البربر من زناته وغيرها في العدو فأزاح بهم العرب واصطنعهم أولياء له . ولما لم يبق في الأفق طامع أو مناوئ استبد بالأمر كله . تشبه بالخلفاء في كل شيء حتى بناء مدينة خاصة به ضاهى بها الزهراء التي بناها الخليفة الناصر وسماها الزاهرة وتلقب مقابل لقب الناصر بالمنصور ونقل خزائن الأموال إلى مدينته الجديدة لتكون تحت إمرته الدائمة . وقعد على سرير الملك وأمر أن يُحيا بتحية الملوك وأن

تقبل يده وأيدي أولاده ونفذ الكتب والمخاطبات باسمه وحده وأمر بأن يدعى له على المنابر باسمه فلم يبق للخليفة الحقيقي سوى الدعاء له قبل ابن أبي عامر وسوى صك اسمه على السكة والطراز ...

على أن هذه الأعمال كلها كان من شأنها أن تبغضه إلى الناس الذين ألفوا السيادة الأموية وارتاحوا قروناً إليها لكن ابن أبي عامر سلب العقول بغزواته للدول الإسبانية النصرانية حوله . قام بست وخمسين غزوة كان هو على رأسها . فما انهزمت واحدة منها ، ولا نكست له راية . وكان في كل مرة يعود في موكب ضخم إلى قرطبة سائقاً أمامه جموع الأسرى والغنائم كل صيف وكل شتاء وآمن الناس أنه محظوظ وأن القدر يمشي معه . فما من أحد من ملوك الإسلام شاركه في هذه الخاصة ...وقد انتهى في بعض غزواته إلى شانت ياقب من أقصى شمال إسبانيا .

هذا إلى أنه أمن الطرق وبنى قنطرة نهر قرطبة العظمى وقنطرة استجه على نهر شنيل . وكتب بيده مصحفاً يتبرك به وجمع غبار المغازي عن جبهته في صرة دفنها معه يوم دفن . وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان ذلك لأنه توفي وهو عائد من الغزو ودفن في مدينة سالم سنة ٣٩٢ وقصصه في العدل والذكاء والدهاء والتحيل في إرضاء الناس لا تنتهي ! كان صورة الخليفة الذي يتمنون . والمتمم لعهد الخليفة الناصر ألم يكن لهذا المستبد من معارض ؟ بلى ! لقد كثر النقد له والتشنيع عليه في أوساط العامة وأخذوا عليه قراراته المخالفة للشرع وفق أحكام المذهب المالكي . واستبداده بالرأي وحجبه الخليفة عن الناس . لكن ذلك كله بقي معارضة كلامية . ولم تصل إلى حد تهديد سلطانه الفعلي الذي استمر قرابة ست وعشرين سنة ! وبلغ من توطد أمره وقبول الناس بعامة له أن خلفه في الحجابة ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر فلم يجد هذا التصرف اعتراضاً من أحد . ! وسمى المؤرخون عهده

وعهد ابنه وحفيده باسم الدولة العامرية كأنهم قد سلموا بأن الدولة الأموية قد أزيحت عن دست الحكم ...

هل كان الابن بمستوى أبيه من الفهم والبراعة والحظ . كان مستبداً مثله ولكن عهده لم يطل . مال كأبيه إلى المغاربة وفرض على رجال الدولة العمامة بدل القلنسوة على الزي المغربي ولعله لها بأمثال هذه الأوامر ولكن الدولة كانت مستمرة على سنتها حتى في الغزو الصائف والشاتي . لم تهتز إلا حين تولى أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول وطلب من الخليفة التعس هشام أن يكون ولي عهده !

هذه كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير ! قامت عليه الثورة من قرطبة لا تبقى ولا تذر . يريدونه حاجباً خادماً للخلفاء أما أن يلي الخلافة فذلك أمر آخر دون خرط القتاد... وكان من جرائه أن قبض على شنجول واحتز رأسه وهدم الناس مدينة الزاهرة وانتهبوها . ودخلت قرطبة منذ هذه الفترة مرحلة الفتن والفوضى !...ولم تقم لها ولا للدولة الأموية قائمة من بعد !

الخليفة الذي مات ثلاث مرات

هل يموت المرء أكثر من ميتة واحدة ؟ فما بالك إن زعموا إن رجلاً مات ثلاث مرات ؟ ذلكم هو الخليفة الأموي الأندلسي هشام الثاني الملقب بالمؤيد ...

كانت الميتة الأولى مزعومة . فقد ادعاها الثائر المهدي ابن عبد الجبار في قرطبة سنة ٣٩٩ ثم نفاها في السنة التالية وأبرز الخليفة للناس ، استجلاباً لتأييدهم حين دهمه الخطر . وكان للبيت الأموي حرمته ومكانته العميقة في النفوس . ثم أعلن موته سنة ٤٠٣ أيام الخليفة سليمان المستعين الذي خلفه وأكد ذلك علي بن حمود الذي ثار باسمه بعد أربع سنوات . ولكن جمهرة الناس لم تصدق الخبر أبداً واعتبرته دعوى سياسية يبرز بها الخليفة الجديد سليمان خلافته ورددت الشائعات أن سليمان حجر عليه ففر من القصر ...ولكن إلى أين ؟ الشعب الذي كان شديد التعلق بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء وكسته حلل الشرف والمجد كان يتلقى الشائعات بتصديق وشغف . وكانت شائعات أشبه شيء بالقصص ولكنها غنية بالتفاصيل المثيرة ...

قالوا إن الخليفة هشام تخفى وامتهن نفسه في طلب العيش أولاً في قرطبة ثم غادرها إلى المشرق . وانبرى أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته هناك فأشاعوا أنه رحل أولاً إلى مكة ومعه خريطة (أي كيس) مملوءة بالنقود والنفائس فسلبه العبيد الزنوج الذين كانوا يرافقونه كل ما معه وزعموا أنه بقي يومين لا يذوق طعاماً ولا شراباً إلى أن رآه صانع فخار فرقَّ له ورثى لحاله .

وعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهماً ورغيفاً ، فرجا صانع الفخار أن يعجل له الأجر سلفاً إذ مضى عليه يومان وهو جائع لم يذق طعاماً . وبعد لأيٍ استطاع هشام ــ على عجزه عن العمل ــ أن يكسب قوت يومه !!

إلا أنه أنف هذه الحال فهرب وسار مع قافلة ذاهبة إلى فلسطين ووصل بيت المقدس وهو في أشد حالات الإملاق . وإنه ليتنقل في بعض طرق المدينة إذ وقف على دكان حصري وأخذ ينظر عمله بانتباه شديد . فسأله الحصري :

ــ هل تعرف هذه الصناعة ؟

ــ فأجابه محزوناً : كلا وأنا آسف لأنه لا سبيل إلى أن أعيش وأكسب ما أسد به الرمق .

فقال الحصري :

ــ إذن ابق معي لحاجتي إليك في إحضار الخيزران ولك أجرك .

فقبل هشام مسروراً وبقي عند الحصري حتى حذق هذه الصناعة . وما زال على هذه الحال بضع سنين ...وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد إلى الأندلس سنة ٤٢٥ فنزل مالقه ثم تحول عنها إلى المرية فوصلها سنة ٤٢٧ وعرف أميرها بوصوله فأبعده خارج حدود إمارته فرحل إلى قلعة رباح وألقى هناك عصا التسيار ...يؤذن في مسجدها ويسكنه ويتقوت من عمل الحصر من نبات الحلفاء ...

قد لا تستحق هذه الرواية التي شاعت بين الناس شيئاً من الثقة . ولكنها صادفت رواجاً وقبولاً من الشعب وظلت لمدى يزيد على عشرين سنة تغذي خياله . والذي وقع حقيقة هو أنه في الفترة التي كان فيها يحيى بن علي الحمودي يدعي الخلافة ، يهدد قرطبة وإشبيلية اللتين آلتا إلى بني عباد كان في قلعة رباح رجل حصري اسمه خلف يشبه الخليفة هشاماً تمام الشبه ، وحين

طرق سمعه ذلك صدقه وجازت الحيلة على أهالي القلعة ولا سيما وهذا الخلف غريب عنهم وغير معروف النسب فدخلوا في طاعته وثاروا على أميرهم الذي حاصرهم مدة وطرد خلفاً من البلد وأعادهم إلى السكينة !...

وبلغ الخبر القاضي ابن عباد وولده اسماعيل فوجدا في القصة ضرباً من اللعبة السياسية الناجعة للوقوف ضد الحمودي الطامع فخرجا بشكل مسرحي مع خاصتهم وعبيدهم ومعهم أثواب الخلفاء ومراكبهم وعند لقائهم لخلف ترجل القاضي وابنه وقبلا الأرض بين يديه ثم انكبا على أقدامه يقبلانها وهو مبهوت مما يعاني . ثم ألبساه الكسوة الخلافية ورافقاه في موكب إلى القصر في إشبيلية حيث طاف المنادى مبشراً بما أنعم الله به على المدينة إذ حلها أمير المؤمنين هشام المؤيد . وأصبحت مقر الخلافة !

حشر الناس عامة وخاصة في اليوم التالي على أبواب القصر وأدخلوا عليه لمبايعته وبينهم وبينه ستر مسدول يتكلم من ورائه ويعلن أنه صير حجابته للقاضي ابن عباد . وكان على الناس أن يشهدوا بأنه هشام ومن أبى ذلك أخرج من البلد أو وجد في داره مقتولاً ! وقد قدمه القاضي إلى نساء هشام بالقصر فصرحن جميعهن بأنه هو بعينه الخليفة السابق فبعث القاضي إلى شيوخ إشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلنهم بوجود هشام المؤيد عنده ويدعوهم إلى حمل السلاح للدفاع عن حقوقه وخلافته ...

وكلل المسعى بالنجاح ! واعترف بسيادة هشام أمير قرمونه وأمير بلنسية ومجاهد أمير دانية وأمير طرطوشه ...وعدد من البارزين من بينهم بعض كبار الفقهاء في قرطبة !

وساعد على نجاحها أنها غير مستحيلة الوقوع وأن قلة من الناس كانوا يعرفون هشاماً المؤيد فقد حجبه الحاجب ابن أبي عامر ثم ابنه عن الأنظار أيام خلافته ...ولذا سلم الكثيرون بالقصة إلا ابن جهور المستولي على قرطبة فقد ظل ينكر ذلك رغم حرب ابن عباد له ! ...

متى مات هشام الميتة الثالثة ؟ أعلن القاضي ذلك حين زالت دولة بني حمود من الوجود . ولم يعد في حاجة إلى واجهة شرعية يختبئ وراءها . حينذاك قطع الدعوة الهشامية وأعلن أن هشاماً مات منذ سنوات وأنه أخفى موته لمصلحة المسلمين واتخذ بدل لقب الحاجب لقب المعتضد بالله !!

ابن الحديدي

نتزل اليوم في طليطلة ، طليطلة العربية قبل أن تسقط في يد القشتاليين الإسبان سنة ٤٧٨ هـ . كانت بلداً منيعاً تحف بها الأودية فترتفع بينها على نشز من الأرض يعطيها الإطلالة الواسعة على البر كله حولها . والبر شجر كثيف وبحر من الخضرة والألوان . ولقد كانت في العهد السابق للإسلام عاصمة الجزيرة الإسبانية كلها ولعلها لذلك ظلت في العصر العربي مهد الثورات المتوالية والعصيان المتكرر . لكنها في الوقت نفسه لم تكن متماسكة الجبهة في الداخل فالمنافسات الأسرية تمزقها دون انقطاع حتى إنها كثيراً ما كانت تطلب قضاة لها من غير أهلها . أنفة من الخضوع فيها لأسرة دون أخرى . وفي مطلع القرن الخامس للهجرة كان فيها من أهلها قاضيان معاً واحد من أسرة كوثر الأنصاري والآخر من أسرة يعيش الأسدي . للتوازن ...

كان ممكناً أن تجري الأمور في سلام لولا أن حاكم المدينة لبني ذو النون ، أمراء المنطقة مال مع أسرة يعيش ونكب ابن كوثر ونفاه إلى شنترين حيث دس له السم سنة ٤٠٣ وأشاع أنه مات عن مرض ! وانكسرت أسرته في حين خلا الجو لأسرة يعيش حتى إذا مات حاكم المدينة انقلب القاضي ابن يعيش على ابنه فطرده وتسلم الحكم !! لم يتلقب بالألقاب السلطانية أو لم يجرؤ على ذلك ولكنه حكم طليطلة بالشدة والقسوة . منع خروج النساء خلف الجنائز إلى ما وراء باب البلد . منع صنع الدرمك جملة . منع غناء الجواري للرجال في البساتين ...ومنع ومنع ...حتى ضاق به الناس فإذا بهيجة

عامة تقوم ضده سنة ٣١٧ كانت السبب في استدعاء الأمير اسماعيل بن ذي النون ونفيه إلى قلعة أيوب ...ليتوفى هناك .

ولم يكن اسماعيل بذي شعبية أبداً . فقد عرف بالحرص والتقتير . حتى شنع عليه الأدباء وكتب ابن بسام أنه « لم يرغب في ضيعة ولا سارع إلى حسنة ولا جاد بمعروف ...ولا عرج عليه أديب ولا شاعر ولا امتدح ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل ... » . وقد ترك اسماعيل إدارة المدينة لرجل من وجهاء طليطلة هو أبو بكر ابن الحديدي . كان هذا شيخ المدينة والمنظور إليه من أهل العلم والعقل والدهاء وحسن النظر في إصلاح البلد . وكانت العامة تقصده وتقوم دونه » . ولا شك أن ذلك كان من دهاء اسماعيل حتى إذا تمرد هذا البلد المعتاد على التمرد وجد أمامه وجهاً من أعيانه يناوشه ويصب نقمته عليه .

وعلى الرغم من موت اسماعيل وتنافس ولديه على الحكم ونزول عمهما كخصم ثالث واستعانته بالنصارى ضدهما ثم انتهائه مسموماً عندهم لاسترابتهم في شأنه فإن ابن الحديدي بقي شيخ المدينة . ولكن الوالي يحي المأمون بن اسماعيل اشرك معه شخصاً آخر استرضاء للأسر الأخرى فصار تدبير الأخبار والنظر في القواد والشؤون السلطانية أي الرئاسة العليا لهذا الشخص الآخر وبقي لابن الحديدي النظر في الجماهير والرأي والمشورة في الصغيرة والكبيرة ...

ونمى إلى الأمير وهو في بلنسية أن هذا التدبير لم يعجب الجميع وبالتالي لم يمنع من اتفاق ستة من كبار الفقهاء في طليطلة للعمل ضده . فقلق وفكر ثم دبر وقتل كيف دبر . استدعى الفقهاء الستة إليه في بلنسية مع كبيرهم القاضي أبي زيد ابن الحشار القراطبي سنة ٤٦٠ بحجة البحث معهم في شأن يتعلق بالأعداء الإسبان . وأسقط في يده حين حضروا مع جمهور من عامة طليطلة ! . فاستدعاهم إليه واحداً بعد الآخر وجعل الدخول من ممر يقف

فيه حداد وبين يديه القيود والأعوان . ولما بلغ الخبر العامة أعلن منادي السلطان بالسيف على من أعلن أو نطق ! فسكن الناس . وقيد الفقهاء بالسلاسل وسيقوا ليسجنوا في مطبق قلعة قونقة . أما كبيرهم القاضي القرطبي فسجن في وبذة ثم نفي بعد ذلك إلى طرطوشة استقضى بها أولاً ثم استقضى في دانية حيث توفي سنة ٤٣٧ . ويظهر أنه عومل هذه المعاملة لأنه قرطبي ولا عصبية له في طليطلة . أما أملاك المساجين فأبيحت للناس ! .

وانفرد ابن الحديدي إثر ذلك بالسلطة والنفوذ لا في طليطلة فحسب ولكن في دولة المأمون بن ذي النون كلها . حتى قالوا إنه وضع زمامه بيده واستخلفه على بلده وولده ! .

لكن وفاة هذا الأمير واستخلاف حفيده الملقب بالقادر غير الأمور ...نشأ القادر بين العبيد من الخصيان والجواري فملكوا أمره وسيطروا عليه . وكان ابن الحديدي زعيم طليطلة هو السد أمام أطماعهم وأهوائهم فوجهوا همهم لاكتساحه ، حتى صارت الأمور صراعاً بينه وبين القادر . اقتنع القادر أنه لا ملك له ما دام ابن الحديدي في السلطة ...ودبرت المؤامرة في ليل ...

كان الأب المتوفي سيرسل في تابوت إلى قرطبة برفقة مجموعة من الجند مع ابن الحديدي . وأوصى الجند باستفراده في الطريق وقتله ! وعرف الرجل بالأمر فانفصل عن مشيعي التابوت بسرعة ولحق بإحدى ضياعه ثم عاد سراً إلى طليطلة واجتمع حوله الانصار والعامة فإذا هو الجانب الأقوى وازداد القادر رعباً . وبعث يفاوض الرجل الذي قبل تقديم الطاعة له مقابل تسليم معاونين من أعوان الأمير سماهما بأسمائها . وهما من زعماء العبيد لأنهما كانا وراء تدبير الاغتيال . وتقدم الحديدي إلى القصر وسط حشود العامة التي غصت بها ردهاته وساحاته . فاستلم الرجلين وقتلهما وأباح للناس نهب

بيوتهما ...وجاءه ابنه ينصحه أن يغتنم الفرصة ويطرد بني ذي النون مرة واحدة لكنه رفض !...في حين ازداد خوف القادر منه واستفحلت شكوكه ...

وتحلق من حوله الدســاسون يشـيرون عليه أن يطلق زعماء طليطلة الذي سجنهم جده في قونفة فمن شأن هذا الأمر أن يضعف جبهة الحديدي فهم منافسوه . وأخرج السجناء في السر وأدخلوا إلى طليطلة ملثمين ثم نقلوا إلى القصر أثناء اجتماع ابن القادر والحديدي . وفوجئ الحديدي بهم يتحلقون حوله . وانسحب القادر فانفردوا به وقتلوه وألحقوا به شيخين كانا عند أبواب القصر للمراقبة ! وحين ألقى رأسه للعامة هاج الناس وماجوا لولا أن أخرج اللورنكي زعيم المسجونين فإذا هو أعمى فأثار شفقة الناس من جهة ولولا أن أثاروا فيهم شهوة النهب وبعثوهم ينهبون بيت الحديدي وأقربائه ...

القادر المسكين هرب من الدلف إلى تحت المزراب اصطدم مع من أطلقهم من السجناء فثاروا عليه وأوشك على الوقوع في قبضتهم فهرب مسرعاً لدرجة أنه لم يصطحب أحداً من عيـاله معه حتى إن امرأته وابنته لحقتا به حافيتين مقدار فرسخين ...وانتهى بعد الهرب أن طلب النجدة من الإسبان ! ومن الفونسو السادس ليستعيد عرشه ...فكان هذا أول الخطوات في سقوط طليطلة أمنع معاقل الإسلام في وسط إسبانيا ... وكذلك تدول الدول .

الـزاهـرة

هذه المدينة الأندلسية لم تكن إليها حاجة وإنما بنيت لمجرد المضاهاة والتوازي مع مؤسس مدينة الزهراء . كانت ، حتى في اسمها تقلد الزهراء . وإذا بنيت الأولى في غرب قرطبة على مبعدة قليلة منها ، فهذه بنيت في شرقي قرطبة وعلى مبعدة قليلة منها . وكان في قرطبة والزهراء ما يكفي ويغني لولا أن شهوة التقليد .

باني الزهراء هو الخليفة الأموي الناصر لدين الله وأما صاحب الزاهرة فالحاجب الذي استولى على السلطة في غفلة من الزمن ولعب بالحكم خمساً وعشرين سنة ويبدو أن عقدته فيها كان ذلك الخليفة ! وهو محمد ابن أبي عامر الذي لقب نفسه بالمنصور أيضاً !! على أن الزهراء إن كانت بنيت عظمة وافتخاراً . فالزاهرة بنيت خوفاً وخشيةً ... وذلك كما قالوا : « عندما استفحل أمره واتقد جمره وظهر استبداده وكثر حساده وأنداده وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان فتوثق لنفسه وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه . ويحله أهله وذويه ويجمع فيه غلمانه وفتيانه فارتاد موضع مدينته الزاهرة » !..

بدأ ابن أبي عامر بناء الزاهرة سنة ٣٦٨ وأتمه في سنتين . على طرف نهر قرطبة الأعظم ونسق فيها كل اقتدار معجز وحشد الصنّاع والفعلة وجلب إليها الآلات الجليلة وسربلها بهاء وتوسع في اختطاطها وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها وبالغ في رفع أسوارها وسهر على تسوية آنجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة وصار بناؤها من الأنباء الغريبة .

وفي سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته . فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته . واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهراء للتموين و وأطلق بساحتها الأرحاء للطحين ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا فيها كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المثيرة . وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة . وتناهى الغلو في البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة ...

ورتب (ابن أبي عامر) فيها جلوس وزرائه ورؤوس أمرائه وندب إليها كل ذي خطة بخطته ونصب ببابها كرسي شرطته وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخليفة . وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات ويقصدها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج ...وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار . وتم لمحمد بن أبي عامر ما أراد وعطل قصر الخليفة وصيره بمعزل وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهي والأمر ويشرف على كل داخل ورتب عليه الحرس والبوابين والسمار يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً ويراقبون حركاتهم سراً وجهاراً .

واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الأيام في تشييد بنيانها حتى كملت أحسن كمال وجاءته في نهاية الجمال نقاوة بناء وحسن فناء ونضرة بستان ...وجعل ابن أبي عامر قصوره الخاصة في جانب عرف بالمنية العامرية . وتبارى الشعراء في مديح البناء والقصور . وكانت له دخالة (أي استهلاك) كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان (الأسماك) وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء ...

سكن المنصور ابن أبي عامر مدينته هذه هو ثم إبناه تسعاً وعشرين سنة ثم ...انهار كل شيء ! يحكون عنه أنه كان في قصره بالزاهرة فالتفت فيها يميناً وشمالاً ثم انحدرت دموعه . وسـأله بعض خاصته : ماله ؟ فقال : ويهاً لك يا زاهرة ليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه ؟ عن قريب . ولما قالوا له : ما هذا الفكر الرديء؟ قال : والله لترون ما قلت . وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت وبرسومها قد غيرت وبمبانيها قد هدمت وبخزائنها قد نهبت وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت !

فلم تكن بعد ذلك إلا سنوات حتى قامت الفتنة على ابنه الثاني عبد الرحمن الملقب بشنغول وثارت العامة وكانت الطامة . ولم تنقرض دولة آل عامر فحسب ولكن أتت الثورة على المدينة بأسرها تخريباً وتدميراً . وذهبت كأمس الدابر وخلت فيها الدسوت الملكية والمنابر واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسـلاح وتلاشى أمرها ، فهي قاع صفصف يبحث الباحثون اليوم عن مكانها !...

ويروى أن بعض الأولياء نظر إلى مبانيها العالية الرائعة فقال : يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار ...فلما خربت لم يبق دار في الأندلس إلا ودخلها من نهبها حصة كثيرة أو قليلة . وبعض ما نهب منها بيع في بغداد والمشرق !

ألم يكن ابن أبي عامر في تخوفه الدائم على حق ؟

ولقد زالت مدينة الخوف !

حتى اليهود كانت لهم حظوة ..ولكنهم ...

لو سألت أي يهودي عن العصر الذهبي لليهود ، في عهود الشتات لما تردد في أن يقول إنه العصر الأندلسي . التسامح الذي عرفوه في ذلك العصر ما عرفوا قبله ولا بعده أوسع منه . وغير صحيح ما يجعلونه لأنفسهم من الفضل في هذا الفتح العربي أو ذاك . ولكن الصحيح أن سماحة الإسلام هي التي وسعتهم واحتوتهم ...ولنأخذ من سيرهم في ذلك العهد الأندلسي سيرة واحدة. سيرة الرابين صموئيل أي اسماعيل هاليفي ... من رجال القرن الخامس الهجري !

كان هذا الرجل يدعي قبل أن يكرس رابيناً ، عبادة من نفذ له . وهو من قرطبة . وقد درس التلمود على الرابين هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية يومذاك . ثم انصرف بجد ونجاح إلى دراسة اللغة العربية والأدب وتثقف — كما يبدو — بأكثر العلوم المعروفة لذلك العهد . ثم كان بعد انقطاعه عن الدروس بدالاً صغيراً وقضى في هذه التجارة مدة طويلة في قرطبة ثم انتقل إلى مالقة فأقام بها بعد أن استولى البربر على العاصمة ...

وجاءته الفرصة السانحة تسعى ذات يوم ...كان حانوته قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير الجيوش لدى أمير غرناطة . وكان على رجال القصر في الغالب أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من الشؤون . ولأنهم كانوا في معظمهم أميين أو قليلي الحظ من حسن الكتابة كانوا يلجؤون إلى عبادة اليهودي ليحرر لهم ما يحتاجون من الرسائل . ولفت نظر الوزير جزالة الأسلوب العربي في الرقع التي تقدم إليه مما جعله عند عودته إلى مالقة أن يسأل

عن منشئ تلك الرقع ولما عرف أنه اليهودي استدعاه وقال له : ليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت . وما أجدرك أن تكون في بلاط ملك فإن توفرت على ذلك رغبتك فإني متخذك لي ناموساً خاصاً .

وقبل ابن النغدلة وصحب الوزير إلى غرناطة الذي ازداد إعجاباً به حين بادله الحديث في شؤون الدولة فوقف منه على رجل نادر الذكاء بعيد النظر سديد الرأي . ولما مرض الوزير مرض الموت جاء أمير غرناطة يزوره فأوصاه بابن النغدلة خيراً ...وعمل الأمير واسمه حيوس بن زيري بالنصيحة فأحل صموئيل بالقصر محل وزيره الراحل فصار ناموس الأمير ووزيره المستشار في الكبيرة والصغيرة من أمور غرناطة التي تكاثر اليهود فيها حتى أطلقوا عليها اسم مدينة اليهود !

ولم يجد الأمير ولا أهل إمارته عضاضة في ذلك . بل اعتبروه من سماحة الإسلام وإذا كانت في أيدي اليهود الثروة وكانوا يتدخلون في شؤون الدولة فإن ابن النغدلة كان يشكل درع الحماية والتبرير لهم بذكائه وامتلاكه ناصية البيان بالعربية والعبرية وكتابته بالقلمين وحرصه مع التمسك بدينه على رعاية المألوف في الرسائل الرسمية من العبارات الدينية والبسملة والتحميد والصلاة على الرسول الأعظم . وإجادته إلى كل ذلك سبع لغات ومعرفته التامة بالفلك والمنطق والرياضيات . وإكرامه البالغ نتيجة دهائه وبراعته للشعراء ورجال الأدب فهم أهل الصحافة وقادة الرأي في ذلك الزمن . وجمعه الواسع للكتب وقلة كلامه وتواضع حديثه .

ولم يأخذ عليه الناس رعايته لأبناء دينه وتفقده لرقيقي الحال منهم ولا استخدامه لكتّاب ينسخون له المشنا والتلمود ليوزع نسخها على الطلاب الذين لا يملكون ثمنها . ولا تسمية اليهود له بالناغد أي الزعيم أو أمير اليهود ...ذلك انهم اعتبروا ذلك من شأنه الخاص ما دامت أمور الدولة تمشي على نهجها الإسلامي المألوف .

وحين توفي سنة ٤٥٩ جلل اليهود نعشه وبكوه معلنين . وإكراماً له اتخذ أمير غرناطة باديس الصنهاجي ولده أبا الحسين يوسف مكانه . مع أن الولد لم يكن سر أبيه ولا في مثل دهائه وبراعته ومكره إلا إن أباه قد جمع له المعلمين من كل ناحية وأعلقه بصناعة الكتابة . ورشحه لدى الأمير لمكانه ...

وكان يوسف حاد الذهن فأخذ في الاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال واستعمال اليهود على الأعمال مما زاد من منزلته لدى أميره ، وجعله فوق كل منزلة . واصطنع لنفسه عيوناً في القصر من نساء وفتيان يشملهم بالإحسان فلا يكاد الأمير باديس يتنفس إلا وهو يعلم ذلك . كان الخوف من أن يفقد منصبه يملأ كيانه . وعلم ذات يوم أن ابن الأمير واسمه بلكين تكلم في شأنه عند أبيه فبلغ ذلك منه كل مبلغ وذكروا أنه دعاه لمنزله مع حاشيته وقدم له شراباً مسموماً فرام القيء فلم يستطعه وحمل إلى قصره ، ومات من يومه . وبلغ الخبر أباه فقرر يوسف أن أصحابه وبعض جواريه سموه فقتل الأمير باديس من جواري ولده ومن فتيانه وبني عمه جماعة كبيرة وخافه سائرهم ففروا عنه .

واستراب يوسف في قريب له يساعده في الخدمة ويدعى بالقائد ففتك به فتكة شهيرة تحدث بها الناس وملأت صدورهم غيظاً عليه وذاعت بينهم قصيدة قالها أبو اسحق الاليبري الزاهد في الإغراء باليهود وتناقلتها الألسن ...

واتفق أن أغارت على غرناطة بعوث من جند آل صمادح قالت بأن يوسف هو الذي استدعاها ليصير أمر البلاد لأميرها صاحب المرية ... فلم يؤثر كل ذلك في مكانة يوسف عند باديس المنغمس في بطانته العاكف على شرابه . على أن رهطه من صنهاجة هم الذين تحركوا . فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة فدخلوا عليه . فاختفى في بيت فحم . وسود وجهه يروم التنكر .

فقتلوه لما عرفوه . وصلبوه على باب مدينة غرناطة ...وقتل معه من اليهود في يومه مقتلة عظيمة ونهبت دورهم ...

﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾

مؤامرات حول قرطبة

حين يذكر الذاكرون الأندلس يحسبون أنها روح وريحان وجنة ونعيم ولقد يغتلي ارتيابهم فيتصورون أيامها قطعاً هربت من الجنان ! ...ولقد يعجبون من انهيارها . وإنه لعجب لو أنها بقيت !

تعجبين من سقمي صحتي هي العجب !

ماشئت من الغدر والسفك الدموي والخيانة والتآمر والصغار يملأ ذلك التاريخ ...وما كان بدعاً في ذلك فكل تواريخ الدنيا مثله ولعلها أكثر سوءاً وسوءات !

ومن قصص العهد الأندلسي هذه القصة :

إثر سقوط الدولة الأموية نهائياً سنة ٤٢٢ للهجرة اجتمع كبار القوم في قرطبة العاصمة يتدبرون أمر الحكم فأجمع أمرهم على أن يضطلع بالحكم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور وهو من أهل بيت وزارة ، كان مشهوراً بجدارته وكفايته وعدله . ورفض الرجل أول الأمر ثم قبل بعد الإلحاح ولكنه اشترط أن يكون البلد أشبه بجمهورية يشترك معه في حكمها للشورى زميلان من أسرته محمود بن عباس وعبد العزيز بن حسن . وحكم الرجل متوخياً العدل والسداد . أعاد استتباب الأمن ورفع المظالم وصرف البربر الذين دمروا المدينة من الخدمة مستبقياً منهم بني يفرن لطاعتهم وولائهم . وأنشأ حرساً وطنياً محلياً وكان إذا طلب إليه أمر قال : ليس من شأني ذلك : إنه من اختصاص مجلس الشورى وما أنا إلا منفذ للأوامر . وكان يوجه العرائض والشكاوى إلى مستشاريه للنظر ، ويصدر عن رأيهم . ولم يتظاهر أبداً بمظهر

الحاكم حتى إنه لم يغير منزله المتواضع ورفض أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته فعهد به إلى أكبر الناس مقاماً وأكثرهم احتراماً في المدينة . على أنه كان حريصاً لدرجة البخل ولكنه ما ادخر جهداً في توفير اليسر والرخاء للناس كافة .

حكم ابن جهور في قرطبة ثلاث عشرة سنة حتى ٤٣٥ أعاد إليها فيها كل مجدها سوى المركز السياسي فقد زال فتحسنت خلالها أوضاع البلد وتوطدت علاقاته مع الممالك المجاورة . وانتشرت التجارة والصناعة . وأمنت السبل ورخصت أسعار المواد الغذائية ، وأعيد بناء الأحياء التي دمرها البربر في فتنتهم أو أحرقوها في النهب ...لهذا ارتضى وارتضى الناس أن يعقبه في الحكم ابنه أبو الوليد الذي سار سيرة أبيه اثنتين وعشرين سنة .

وفي سنة ٤٥٧ تنازل عن الحكم بسبب الشيخوخة لولديه عبد الرحمن وعبد المالك معاً . فكأنما صار حكم قرطبة إرثاً في هذه الأسرة . وكان يرى في ولده الصغير عبد الرحمن بعض الضعف فعهد بالشؤون المالية والإدارية إلى ولده الأكبر وترك للثاني القيادة العامة ...

كان أبو الوليد مطمئناً لحسن سير الدولة لأنه كان قد وجد في ابن السقا رجل المملكة . وكان ابن السقا وزيراً ماهراً وشخصيته تبعث الرهبة والاحترام في نفوس القرطبيين قبل الأعداء . سواء كانوا ظاهرين أو عاملين في الخفاء ...وكان في مقدمة هؤلاء المتخوفين من ابن السقا ووجوده الأمير المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وكان أبوه المعتضد قد عانى الكثير ليضم قرطبة إلى إمارته ففشل وورث الابن هذا الطمع . ولكن دون ذلك هذا الرجل : ابن السقا .

دس المعتمد أولاً بعض أعوانه يسعون بين ابن السقا وصاحبه عبد الملك حتى جعلوه موضوع ريبته وأثاروا من حوله الشكوك والتهم . ونجحت السعاية . وسجن ابن السقا ثم حكم عليه بالموت وقتل ...وفقدت قرطبة فيه

لا صخرتها الدفاعيـة فحسب ولكن ايضـاً جانباً حسناً من قوادها وجندها الموالين لابن السقا . وكان لذلك أسوأ الأثر والعواقب على الجمهورية الصغيرة التي انفرط عقدها . وأضحى أميرها عبد الملك نفسه ممقوتاً عند الرعية بغيضاً إليهـم لفظـاعتـه وقسـوته وتهاونه . وإن بقي يحافظ على الشكل الجمهوري للحكم أو على ما بقي منه قائماً .

وفجأة عرف أن المأمون ذا النون صاحب طليطلة قادم في جيشه لأخذ قرطبة ولم يكن لديه سوى مائتي فارس لا يغنون عن الدفاع شيئاً . فطلب المعونة من المعتمد في إشبيلية وسرعان ما أرسل إليه النجدات التي اضطرت جيش طليطلة للانسحاب . ولكنها هي نفسها لم تنسحب بعد ذلك . كان لديهـا تعـليمات سـريـة من المعتمد بأن تبقى . وفي اليوم الذي كان مقرراً لانسحابها سمع عبد الملك صياح الجند الاشبيلي حول قصره يحيطون به مع جمهرة ضخمـة من العـامة ...وفي أسـرع من ارتداد الطرف نزلوا عليه من السقوف وغشوا داره كالجراد المنتشر وأعملوا النهب في القصر ولم ينفع والده الهرب مع نساء القصر إلى بعض العلالي فقبضوا عليه وعلى أبيه وسائر أسرته . ونادوا بالمعتمد أميراً على قرطبة في حين ساقوا آل جهور أسرى إلى جزيرة في البحر اسمها شلطيش فلم يبق أبو الوليد الشيخ فيها أربعين يوماً بعد هذه النكبة حتى توفي !

رأى ابن ذي النون صاحب طليطلة أن قرطبة طارت من يده فتحالف من القشتاليين وجاء برفقة حليفه ألفونس السادس فخرب أرباضها . وقام في جنده رجل فظيع فاتك سفاح يدعى ابن عكاشة كان من قبل من اللصوص المحترفين بالوعر والجبل وهو مع هذا فارس ذكي حديد القلب ، يعرف قرطبة معرفة جيدة فتعهد لابن ذي النون بفتح المدينة فأعطاه حكم بعض الحصون القريبة منها ورجع ينتظر . ولم يكن الأمر سهلاً ولكن ...

كان عبـاد بن المعتمد صغير السن يمثل أباه في قرطبة لكن ليس في

إمكـانه ضبط أمور البـلد . وقائده الذي دخل قرطبـة معـه واحتـلها واسمه محمد بن مارتن من أصـل إسباني كان جندياً باسـلاً وفاتكاً دموياً . ولكن القرطبيين مقتوه وأبغضوه . ولاحظ حراس قرطبة أن ابن عكاشة كان كثيراً ما يتردد على أبواب المدينة ليلاً ويحادث بعض جنود الحامية مما جعل الريب تحوم حولهم وأبلغوا الأمر إلى ابن مارتن فلم يأبه وأحالهم إلى حارس صغير لم يتخذ أي حيطة أو حذر .

وفي ليلة شـاتية حالكة الظلام شديدة الريح والعواصف أمكنت ابن عكاشـة الفرصـة فدخل قرطبة مبادراً إلى قصر عباد الشاب وايقظ الحرس الأمـير فخـرج بغـلالة النوم وأكره المهـاجمين على الجلاء عن دهليز القصر وطـاردهم ولكن ...زلت به القدم فابتدره بعض جند ابن عكـاشــة فقتـله وألقيت جثته عارية في الطريق العام ...وطاف ابن عكاشة في غلس الصبح على دور النبـلاء والوجهـاء يدعوهم للانضمام إليه . ورأى الجثة بعض الأئمة فألقى عليها رداءه . لكن ابن عكاشة جاء فقطع رأسه وطاف به على رمح في البلد . وهربت الحامية في كل سبيل في حين كان ابن عكاشة يأخذ البيعة في المسجد الجامع للمأمون بن ذي النون في ظل السيف .

وجاء المأمون نفسه إلى قرطبة وأظهر التكريم لابن عكاشة والثناء عليه . وهو في الواقع يمقته كل المقت ويرى فيه اللص القديم والمجرم الفاتك . وبحث عن سبب يدعوه لقتله دون ضجة وفاتح في ذلك بعض خاصته فلما دافع عنه قال المأمون : إن رجلاً لا يرى حياة الملوك في نظره إلا رخيصة غير جدير بأن ينال ثقتهم ...وترامى الخبر إلى ابن عكاشة . فلم تمض ستة أشهر حتى وجد المأمون نفسه قتيلاً بالسم . وأصابع الاتهام تشير إلى اللص العتيق !

بعد ثلاث سنوات من الجهود استطاع المعتمد ابن عباد أن يسـترد قرطبة سنة ٤٧١ وما إن دخلها من باب حتى كان ابن عكاشـة يهرب من الباب الآخر . ولم يتركه المعتمد يفلت من يده . بعث على الفور خيالة في

إثره لحقوا به . ولما أدرك أنه واقع لا محالة من يد الأمير الموتور أراد ألا يبيع حياته رخيصة . فكر يقاتل قتال المستميت وسقط قتيلاً . فأمر المعتمد فصلبت جثته على خشبة وبجانبها كلب ؟

ولكن هل استعاد المعتمد ابنه القتيل !

جمهورية إشبيلية

ما جرى في قرطبة يوم سقوط الدولة الأموية الثانية سنة ٤٢٢ جرى مثله في إشبيلية . وإذا قامت في قرطبة جمهورية فقد قامت جمهورية من مثلها في إشبيلية . وكانت جماعة تدعى النسب العلوي هم بنو حمود قد أعلنوا خلافتهم فيها فأخرجهم أهل إشبيلية منها . وأجمعوا على أن يتولى الأمر فيها قاضيها أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد . كانت لهذا القاضي من سعة الصدر وعلو الهمة وحسن التدبير والحصانة ما جعلهم يلحون عليه في القبول . وما جرى لقاضي قرطبة جرى معه . قال : إنه لا يقبل إلا أن يشترك معه في الحكم هيئة شورية عينها بأسمائها . فلا يصدر إلا عن رأيهم وقرارهم . وقبلوا وقامت جمهورية الشورى الثانية ...

اتجه هم القاضي أول ما اتجه إلى تكوين جيش المملكة فقد كان يخشى مفاجأة « حمودية » عليها . رفع أعطيات الجنود وأرزاقهم فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ثم اشترى عدداً كبيراً من المماليك ودربهم على القتال وجرد بهم حملة على الشمال . وفي طريقه وجد حصنين متقابلين يعرفان إلى اليوم باسم « الأخوين » فأرغم من كان عليها على الأنضواء إليه . فزادت نواة جيشه إلى ٥٠٠ فارس . ولكنه لم يكن جيشاً يستطيع الدفاع عن بلد مثل إشبيلية لذلك ما أن زحف إليه يحيى بن علي بن حمود وأمير قرمونة حتى اضطربت المدينة وخافت وفاوضت يحيى تقبل بسيادته على ألا يدخلها مع بربره النهابين !

وقبل يحيى وطلب منهم رهائن تضمن الوفاء فلم يجرؤ أحد منهم تقديم

ابنه رهينة خوفاً من البربر . إلا القاضي نفسه فقد رهن ابنه عباد لديه هذه المغامرة رفعت من شأن القاضي لدى الناس ومكنته تدريجياً من الانفراد بالحكم ومن الرغبة في التوسع ...والطمع في رؤوس الرجال ! صرف زملاءه أهل الشورى من الخدمة ونفى بعضهم وقرر الاستيلاء على مدينة باجة ! التي كانت قد أخربها البربر وغصبوها وأحرقوها ...ولكن أمير مدينة بطليوس عبد الله بن الأفطس سبقه إليها فاحتلها بقيادة ابنه محمد فلما وصلها جيش القاضي العبادي وحليفة أمير قرمونة أفقداه نخبة فرسانه وأخذاه أسيراً إلى قرمونة .

كان هذا كله يجري وهذه دول إسلامية ، أو دويلات صغيرة في مدن متفاخرة . ويوم أطلق أمير قرمونة سراح محمد الأسير طلب إليه أن يعوج على قاضي إشبيلية فيشكره فقال : إن كان هذا هو الثمن فإني أفضل البقاء في الأسر !...وأطلقه أمير قرمونة مع ذلك لا احتراماً لمشاعره ولكن لأنه يكره القاضي . وبعد بضع سنين سأل قاضي إشبيلية أمير بطليوس أن يسمح له بالمرور في جيشه بأرضه بقيادة ابنه اسماعيل ليحارب مملكة ليون الفرنجية . فسمح ابن الأفطس البطليوسي وفيما كان هذا الجيش يمر في مضيق بين جبلين باغته جيش ابن الأفطس نفسه فقتل منه العدد الكبير ولحق فرسان مملكة ليون فتصيدوا الفارين منه . وأفلت اسماعيل من المذبحة في نفر يسير من رجاله وقاسوا مر الشدائد وأقسى المصاعب والجوع وهم يتلمسون طريق العودة ! كان البطليوسي يثأر لأسر ابنه محمد قبل سنوات ! وقامت عداوة الأبد بين الطرفين !

في ذلك الوقت كان يحي الحمودي يعتبر زعيم الحزب البربري الأفريقي في حين كان قاضي إشبيلية ابن عباد يسعى لجمع العرب والصقالبة في حزب مناوئ يقف للبربر ويتسلح لهذا الغرض . وسبق الحمودي يحاصر إشبيلية ويجد في تخريب ما يتصل بها من العمران والطرق ولكن قسماً حسناً من جيشه البربري لم يكن هواه معه ولكن مع الشرعية الأموية . وكانوا يكرهون منه أموراً

كثيرة منها الخمار الذي لا ينقطع ومنها أنه طرد أمير قرمونة فلجأ هذا الأمير إلى إشبيلية وتسلل فريق منهم خفية إلى إشبيلية وأبلغوا القاضي ابن عباد أنه من السهل مباغتة يحيي لأنه لا يكاد يفيق من السكر ولم يدع القاضي هذه الفرصة تمر وأعد جيشه بقيادة ابنه اسماعيل مع أمير قرمونة . فكمن في الليل مع أكثر الجند في كمين . وأرسل كوكبة تناوش جيش الحمودي تغريها باللحاق به . ونجحت الخطة . وكان يحيي ثملاً حين وصله خبر المناوشة فقال :

ـــ فرصة سعيدة أن يأتي ابن عباد لزيارتي . إلى السلاح أيها الجند !

وخرج في ثلاثة آلاف فارس والنبيذ يلعب برأسه فلم يتمهل ريثما يعبئ جنده وينظم خططه وكان الليل حالك الظلمة يحجب كل شيء فهاجم الكوكبة الإشبيلية التي تراجعت حتى موقع الكمين . وانقض اسماعيل العبادي على الحمودي واضطره إلى التقهقر فما كان من يحيي إلا أن قتل نفسه في المعركة . وكاد يأتي القتل على أكثر رجاله . لولا أن أدرك الاشبيليون أن هؤلاء هم ممن أجبرهم الطاغية على التجند معه مع كراهتهم واحتقارهم له !

وأسرع أمير قرمونة يسترد بلده ولما منعه الزنج من جند يحيي الدخول ساعده الأهالي بفتح ثغرة في السور فسار إلى قصر الإمارة . وسلم نساء يحيي إلى بنيه وأستأثر بما وجد في القصر من الكنوز والنفائس !...

ولكنه ما لبث أن عاد إلى معاداة القاضي الاشبيلي حتى قامت الحرب بينهما . ولما انتصرت جيوش إشبيلية عليه طلب المدد والعون من أمير مالقة ومن أمير غرناطة والتقت القوى الثلاث . كان اسماعيل بن القاضي وقائده واثقاً من النصر عليهم جميعاً . بسالة جنده ووفرة عددهم كانت تمنحه الثقة . ولكن المالقيين والغرناطيين انسحبوا في اللحظة الحاسمة ...وتعقبهم إسماعيل ولكنهم وقفوا له قرب بلدة استجه . وفوجئ حين وصل بأنهم في غاية الأهبة للقتال ...فوقع الاضطراب في صفوف جيش إشبيلية وعبثاً حاول اسماعيل

تعبئتهـــم . وبرز أمـام الصـفـوف فكـان أول الضحـايا في حين لاذ الجيش بالفرار ...

هل نتابع الحديث ؟

لو تابعناه ساعات لم يخرج عن هذا الإطار المسكين الذي يقتتل فيه أمراء صغار منسيون على أشبار من الأرض وينحر بعضهم بعضـاً في صراع كصراع الديكة !

والأرض تفر بين أيديهم من متسلط لآخر ، وعلى أطرافها من دمائهم الغزير !

ابـن حـمـديـن

في أواسط القرن السـادس للهجرة / ١٢ /م . كانت قرطبة عروس مدائن الأندلس قد ودعت منذ زمن طويل أمجادها وزهو قصورها والمسجد الجامع يضج بالعلم والعلماء وجموع التجار تغلي في الأسواق ودلال الجواري على النهر وجلال الخلافة العتيق . الكثير من مفاخرها كان قد زايلها بتوالي الفتن وباكتساح المدمرين لها مرة بعد مرة ...

من تلك الفترة هذه القصة المضحكة المبكية :

كان حكـام الأندلس قد وصـلوا من الانحلال السياسي ومن الغدر والغـرور الحد الذي لا يفـرقون فيـه بـين عدو وصـديق ولا بـين ما يكون وما لا يكون . وحين تصغر النفوس والهمـم فلا حد لصغارها ! كل سخائم النفوس تكشف عن وجوهها ...

بدأت القصة في قرطبة ، كانت هذه المدينة كالعجوز المتهدمة تعيش على ماضيـها . وكان حاكمهـا واسمه يحيى بن غانيـة يحكمها باسم سـلطان المرابطين من سلاطين المغرب . وترامت الأخبار لهذا الحاكم أن سلطانه هزم الهزيمة النهائية أمام سلطان جديد من دولة الموحدين . الخبر نفسه ترامى إلى عدد من الولاة الصغار في الأندلس فثار بعضهم في الغرب الأندلسي ضد دولته نفسها . ولكن ابن غانية آثر البقاء على الولاء الذي لا أمل فيه . ولعله حسب أن يتفرد من حكم البلاد . فخرج من قرطبة يخمد ثورات الثائرين في الغرب ! ...

على أنـه مـا كاد يخرج من البـلد حتى قام قاضي المدينة أبو جعفر

أحمد بن حمدين يعلن نفسه حاكماً لها . وازدهاه الغرور فتلقب بأمير المسلمين وناصر الدين المنصور بالله وكاتب قضاة المدن الأخرى يدعوهم أن يحتذوا حذوه وينضموا إليه في الثورة على المرابطين المهزومين ! ولقيت الدعوة آذاناً صاغية أو لنقل أطماعاً جاهزة . فأعلنت الثورات في أغلب مدن الأندلس الأخرى .

ــ في مالقة الثغر الجنوبي أعلنها القاضي أبو الحكم الحسين بن حسون .

ــ في مرسية قامت الثورة تحت راية القاضي محمد بن عبد الرحمن بن طاهر .

ــ في غرناطة ثار القاضي علي بن عمر بن أضحى .

ــ في وادي آش قام القاضي ابن ملحان ...

ثورات متلاحقة ... كأنما أوقدت فجاءة مجموعة مصابيح متفرقة في وقت معاً . إنها ثورات الفقهاء ! وللقاضي في ذلك الوقت حرمته وكلمته السياسية . لم يكن قاضياً فحسب ولكنه قائد اجتماعي !...وتمزقت الأندلس بذلك شر ممزق ! ودبت الفوضى سرطاناً بكل مكان !

هذه الهبة من الثورات في المدن لم تكن مترابطة فيما بينها وإن هبت في وقت واحد . ولم تكن ذات تنظيم مسبق وقواعد في كل بلد قوية . ولكنها كانت أشبه باشتعال أعواد الثقاب ما لبثت أن خمدت أمام القوى المرابطية المحلية . وخاصة في المدن الهامة مثل قرطبة وغرناطة . ابن حمدين كبير الثوار من الفقهاء والقضاة لم يستطع أن يبقى على رأس دولته أكثر من أحد عشر شهراً ، وكان بقاء قلقاً غير مستقر ! إنه لم يكد يسكن قصر الخلافة القديم في قرطبة حتى هاجمه عميل من عملاء الإسبان ! يدعى ابن هود . كان مخلب القط لدى ملك قشتالة يغزو باسمه ويضم البلاد لحسابه !! مع أنه عربي مسلم ! ولكنه زمن الانحلال !!

ولم يكن ابن حمدين القاضي بالقائد الحربي فهرب من وجه ابن هود .

لكن هذا الرجل كان بغيضاً إلى الناس . عمالته المكشوفة أثارت الحقد والكره له فاضطر للفرار قبل أن يمضي في قرطبة اثنى عشر يوماً ! هرب إلى بلدة جيان وتحكم فيها فترة من الزمن ...في حين عاد ابن حمدين من جديد ينظم دويلته في المدينة ويقيم لها جهازاً إدارياً ويجند الأجناد ويتلقى بيعة العديد من الثوار الصغار ...

على أن الحاكم المرابطي القديم ابن غانية عاد ! فشل في إخماد ثورات المريدين في الغرب وسعى بعدها للإقامة في إشبيلية ففشل . وفي النهاية قرر الرجوع إلى قاعدته قرطبة وإزاحة ابن حمدين منها ...وحين خرج القاضي الثائر لملاقاته خارج قرطبة هزم ...القاضي مرة أخرى ألم نقل إنه لم يكن بالقائد الحربي ؟ ووجد بعض الحصون قرب المدينة فتحصن به وحاول الهجوم عليها ففشل ...فماذا يفعل ؟

لجأ وهو القاضي العربي المسلم إلى الإسبان يستعديهم ضد صاحبه ، ألم نقل إنه زمن الانحلال . وأعانه ملك قشتالة ودخل معه قرطبة من جانبها الشرقي ...في حين اعتصم الحاكم ابن غانية في القصر وفي غرب المدينة !...

وترامى إلى الإسبان نبأ جعلهم يقلبون محالفاتهم . عرفوا أن جيش الموحدين المنتصرين نزل الأندلس يخمد ثورات الغرب . فوجدوا من مصلحتهم أن يبقوا على ابن غانية المرابطي القوي ليكون سداً دون القوة الجديدة ، تشغل به ويشغل بها . ويتفرج الإسبان على صراع الطرفين . وهكذا عرضوا على ابن غانية أن يبقى حاكماً في قرطبة على أن يكون من اتباعهم فقبل ... كانت القيم الدينية والخلقية قد تدنت وتدنت حتى عميت البصائر فلا تراها ...فانسحبوا من قشتاله وسلموه ما احتلوا من المدينة . ووجد ابن حمدين أن وزنه قد انعدم في ميزان المصالح وخرج من قصة الحكم كلها صفر اليدين ولو أنه باع دينه وأهله من أجله ! فهرب ناجياً بنفسه يفتش عن مأوى . بحث عنه أولاً في المغرب ولكنه رفض . خسر احترامه كله يوم وضع

يده في يد الإسبان . والتمس الملجأ لدى من بايعوه في ثورته فتملصوا واحداً إثر الآخر حتى قبل به صديقه ابن حسون صاحب مالقة فانصرف إليها ...يعيش في الخمول والنسيان حتى توفي .

ألم يبك يا ترى عهده كقاض محترم قبل أن يتسمى بإمرة المؤمنين وقبل أن يستعدي الإسبان الغدارين ؟

سقوط حجر الزاوية

حجر الزاوية يعرف المهندسون أنه ركيزة البناء . وحين نسأل عن حجر الزاوية في الأندلس فنحن نقصد طليطلة مركز الثقل فيها وعاصمتها التقليدية الحصينة . وسقوطها في يد الإسبان سنة ٤٧٨ كان أول الانهيار في ملك الأندلس الشامخ ...وقصة هذا الانهيار هي قصة تروى !

في تلك الفترة كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى من التفسخ والمذلة إلى ما لا مزيد عليه . وكانت أكبر دوله كإمارة إشبيلية تدفع الجزية للإسبان عن يد وهي صاغرة فما بالك بصغار الدول ؟ والمصادفة المؤسفة أن مُلْك قشتالة وليون ونافار وغاليسيا . وهي دول الاسبان في شمال الاندلس قد اجتمع للملك الفونسو (اذفونش) السادس الذي عزم العزم القاطع أن يفتح شبه الجزيرة كلّها وكان من القوة بحيث يستطيع تنفيذ عزمه بسهولة ولكنه تمهل ...لماذا ؟ ليعتصر دول الطوائف لا ليستخرج منها التفاح أو النبيذ ولكن سائل الفضة والذهب وليدخر كل ذلك لقتالهم ! ..

ولعل أضعف الأمراء المجاورين له كان (القادر) ذا النون صاحب طليطلة . فقد أضر به ترف الحياة ونعيم القصر حتى أضحى بعكس لقبه تماماً ألعوبة الخصيان وأضحوكة الجيران . وكان الأذفونش وحده هو الذي يتظاهر بحمايته بيد ويمد له اليد الأخرى يطلب الثمن ! وتناهى القادر في المظالم والمغارم لشعبه حتى نفر منه الناس . فاشتكى ذلك للأذفونش الذي وعد بدعمه بمجموعة من الجنود مقابل مبلغ طائل من المال لكن القادر لم يستطع جمعه . فدعا كبار المملكة وكاشفهم بالأمر فأبوا أن يعطوه شيئاً فأقسم لتدفعن المال أو

لتكرهن غداً على دفع ابنائكم رهائن عند الأذفونش ! فأجابوه : إننا سنخلعك عن الإمارة قبل أن تتمكن من ذلك !

وأسرع القوم فكاتبوا أمير بطليوس ليسلموه المدينة واضطر القادر للهرب منها في الليل . ولجأ من جديد إلى الأذفونش يطلب عونه واتفق معه على حصار طليطلة ليعيده إلى الإمارة ولم يقبل القشتالي منه المال الذي حمله بحجه أنه قليل واشترط أن يعطيه بعض الحصون في المنطقة ثم يطالبه بمبالغ أخرى .

والتزم (القادر) بكل هذا ولكن المدينة قاومت . ولقد جابهه زعماء المدينة في شوارعها يوماً كاملاً ثم حاولوا شراء الأذفونش مثله ولكنه بقي ثابتاً على دعم القادر مما اضطرهم للهرب من المدينة ومات قائدهم ابن مغيث في قشتالة نفسها . وقاومت طليطلة سنتين قبل أن يستعيدها القادر !

في هذه الأثناء كان الأذفونش يطالب إشبيلية بنصيبها من الجزية كالعادة . وكانت تدفعها إلا إن المعتمد بن عباد أميرها تلكأ وهو يدبر في رأسه أمراً . وصل وفد الأذفونش المؤلف من جماعة من الفرسان معهم يهودي يدعى ابن شبيب وضربوا خيامهم في ظاهر المدينة وجاءهم أبو بكر ابن زيدون (وهو ابن الشاعر المعروف) وكان ذا الوزارتين في إشبيلية وقدم بعض الجزية لأن سوء الحالة في ذلك الوقت لم يمكن المعتمد رغم ما فرضه على رعيته من المظالم ، من أن يجمع المبلغ المطلوب فأساء اليهودي الأدب ورفض المبلغ وهدد أن الأتاوة ستكون في السنة المقبلة حصوناً ومدناً لا مالاً زائفاً ...

وعرف المعتمد ما فاه به اليهودي فأخذه الغضب وأمر أن يحمل مع الوفد كله إليه . وأمر بسجن الجميع وصلب اليهودي الذي عرض أن يفتدي حياته بوزنه ذهباً فقال المعتمد :

ـــ لو جئتني بالأندلس كلها فداء ما قبلته منك وصلبه منكساً على رأسه .

وبلغ الأذفونش ما جرى لرجاله فأقسم بالله وبجميع القديسين أن ينتقم من المعتمد الانتقام المشروع ويغزو اشبيلية ...وكان قد انتهز الفرصة يفتح المعاقل ويخرب القرى حتى بلغ أقصى جنوب الأندلس وأشرف على بحر العدوة عند طريف وجبل طارق ! لكنه خاف على فرسانه المساجين فافتداهم أولاً بتسليم أحد الحصون للمعتمد ثم مشى يحاصر إشبيلية ثلاثة أيام وتركها إلى طليطلة ...

كان قد اتفق مع القادر صاحبها أن يظاهره على أهل بلنسية ليحتلها ويجمع منها الأموال التي يريدها الأذفونش . وأرغمتها الجيوش الإسبانية والقادرية على فتح أبوابها وعلى دفع الإتاوات ولكن القادر حين قدمها للأذفونش قال له هذا بفتور وامتعاض : هذا لا يكفي ! فأضاف إليها القادر ما ورثه من الكنوز والنفائس عن أبيه وجده فسمع منه مرة أخرى : هذا لا يكفي ! فطلب مهلة يجمع فيها المزيد فقال الأذفونش : ادفع إلي بعض الحصون رهناً . ودفع القادر ...سلم طارفه وتليده وميراثه وحصونه وهو مرغم ...وكلمة : هذا لا يكفي هي الجواب . وعاد يرهق أهل بلنسية بالمغارم حتى لم يعودوا يطيقون وأخذوا في الهرب من بلنسية زرافات ووحدانا . ونضب معين المال تماماً . وأقسم القادر للأذفونش أنه لم يعد يملك شيئاً . فقام الأذفونش يخرب السهول حول طليطلة ويهدد ويتوعد والقادر متمسك بقواعد عرشه الذي نخزه السوس حتى العظم ...وأخيراً قابل الأذفونش وقال له :

ــ إني مضطر إلى التخلي عن طليطلة والتنازل عن إمارتها .

فاشترط الأذفونش : أن يترك لأهلها حرية البقاء أو الهجرة فيها وأن يدفعوا الجزية مقدماً على أن يساعد القادر على تملك بلنسية . وافق القادر على الشروط ...لكن

لم يكن احتلال طليطلة هيناً . فقد تقدم الأذفونش يحاصرها أولاً ويقطع عنها الإمدادات والاتصالات والمؤن . وأخذ يغير على زراعتها ثم تقدم

إلى جوار الأسوار واتخذ معسكره في مدينة السلطان ، بستان القادر الذي يتباهى بحسنه . وفقدت الأقوات لدى المحاصرين . وحل شتاء شديد القسوة على الناس فجاعوا وسحقهم البرد في حين كان بعض ملوك الطوائف يقدم المؤن لجند الأذفونس . وطلب أهل المدينة هدنة ليطلبوا معونة بعض الملوك فأثبت لهم الأذفونس أنهم جميعاً من أتباعه . فأسقط في أيديهم وسلموا المدينة ...

ودخل الأذفونش طليطلة عاصمة القوط القديمة في أبهة وكبرياء في ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ في حين بلغ من مذلة أمراء الطوائف أن لم يبق واحد لم يبعث إليه بالتهنئة والهدايا واعدين بأن يكونوا في حدود سلطانه كجباة لتحصيل الضرائب ودفع الأتاوات وسرعان ما تسمى الأذفونش بملك ملوك الديانتين المسيحية والإسلامية ! واتفق أن قدم عليه أمير البرزاليين بهداياه وكان بين يديه قرد يداعبه فقال الأذفونش بازدراء : دونك هذا القرد بديلاً عن هديتك . فتقبله البرزالي واعتبره دليل رضى وأمن ! وكان كل ذلك رياء من الأمراء ونفاقاً ذلك أنهم أدركوا حين سقطت طليطلة أن حجر الزاوية في بناء الأندلس الشامخ قد سقط ! كانوا يعرفون أهمية موقعها الاستراتيجي الخطير . وقيل إن بعض الأمراء بكوا هذا السقوط وإنما بأيديهم عملوا عليه !..

أما الشاعر فقال :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما البقاء بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

الأمـيـر المـشـؤوم

هل تؤمن بشـؤم بعض النـاس وسعد بعض النـاس ؟ أنا أكاد أؤمن فبعضهم يرافقه الحظ حتى في مغامراته القاتلة . وبعض يتعثرون بالشؤم وهم في أسعد المواضع . ومن هؤلاء المشـؤومين الأمير القـادر ذي النون صـاحب طليطلة الأندلسية الذي بذل كل شيء حتى كرامته ليحفظ عرشه فيها . ثم اضطر أن يسلمها لقمة سائغة للأذفونش ملك الإسبان سنة ٤٧٨ ! ووعده هذا الملك أن يساعده في أخذ بلنسية الثغر الأندلسي وأخذها بالفعل لكن بحراب الجيش القشتالي ! ونزلها هذا الجيش وكانت مؤونته على أهل الثغر . وكانت تكلفهم كل يوم ٦٠٠ قطعة ذهبية !! وعبثاً حاولوا إقناع القادر بأنهم سيكونون موالين له ليصرف هذا الجيش . لكنه كان يستريب بهم ولذلك أصم أذنيه عن نداءاتهم بل كان يعرف أنهم يمقتونه لما فرط في حق المسلمين بتسليم طليطلة . ولهذا استقر رأيه على إبقاء جيش الاحتلال القشتالي بجانبه . وأثقل كاهل المدينة بضرائب فوق العادة وأخذ من النبلاء وكبار القوم مبالغ طائلة مهدداً بهذا الجيش . وجاءه ذات يوم قائد مطالباً بالمزيد وبالمتأخر من أرزاق جنده . ولم يكن عنده ما يعطيه فاقترح ذات يوم أن يعطيه سهلاً واسعاً بجانب بلنسية يقطعه لهم وقبلوا وأخذوا يزرعونه بواسطة العبيد . ثم دأبوا على مهاجمة البلاد المجاورة سلباً ونهباً ، واكتفوا بذلك عن الزراعة .

وازداد عددهم بمن انضم إليهم من شذاذ العرب وحثالتهم وبمن انضوى إليهم من العبيد التابعين الآبقين والفسدة ومعتادي الإجرام وارتد بعضهم عن دينـه إلى النصرانيـة زلفى لهم . واشتهرت هذه العصـابات سريعاً بالفظاعة

والقسوة . كانوا يقتلون الرجال ويعتدون على الأعراض وكثيراً ما كانوا يبيعون الأسير المسلم برغيف من الخبز أو بجرعة من النبيذ أو بشواء من السمك . وكانوا يمثلون بالأسير الذي لا يستطيع فكاك نفسه بالمال تمثيلاً وحشياً فربما سلوا لسانه ثم سملوا عينيه أو أطلقوه للكلاب الضارية تمزقه ...أما بلنسية فكانت في الواقع تحت سلطان الأذفونش ولم يكن للقادر العاشر سوى اسم الإمارة فمعظم ملحقاتها من الحصون والمواقع كانت قد صار للإسبان .

وتضاءل في الإمارات الإسلامية الرأي القائل بالمقاومة وانتشر بالعكس الرأي القائل بالهجرة والهرب . فراراً بالشرف والعرض والدين وحرض على ذلك الشعراء . لولا بصيص أمل ...هو أن تأتيهم مساعدة من خارج الأندلس ...وجاءت هذه المساعدة من عرب العدوة المغربيةوبربرها . دولة الموحدين الناشئة هناك كانت قوة إسلامية ضخمة وقد دخلت الأندلس وهزمت عنجهية الأذفونس في معركةالزلاقة ...

وكانت هذه المعركة السبب في تخليص بلنسية من الجنود قطاع الطرق ومحترفي الإجرام . ذلك أن الأذفونس استدعى قائده البرهانس لحاجته إليه فانصرفوا عن المدينة . لكن الذي أسف وزاد رعبه هو الأمير القادر فمن ذا الذي يحميه ؟ من غضبة الناس في الداخل ومن الطامعين في البلد من الأمراء المسلمين الآخرين . وسرعان ما وجد الحماية المطلوبة في شخص السيد القمبيطور ومن هو السيد القمبيطور هذا ؟ مغامر إسباني صار مع الأيام أسطورة إسبانية شائعة . اسمه رود ريغو دياز دو فيفار ولقبه الكمبيدور يعني المحارب . وهو فارس لا ولاء عنده لأحد . وقد وضع سيفه بجانب المسلمين مرة كما وضعه ضدهم مرات . ويمقته القشتاليون وأهل مملكة ليون كما يكرهه العرب ولكنه جمع عصابات من المقاتلين يفرض بهم رأيه وإتاواته هنا وهناك . ويصيب المسلمين من الضنى الكثير ...كان « أزعر » الأندلس في تلك

الفترة . فاستدعاه الأمير القادر سنة ١٠٨٧ ليحتمي به مقابل مائة ألف دينار كل سنة .

عاشت إمارة القـادر على هذا الوضع الذليل ست سنوات . وأهلها ينتظرون الفرج بوصول المغاربة المرابطين إلى بلدهم أو إلى جوارهم ليتحركوا . وأخيراً أخذ المرابطون مرسية البلد القريب من بلنسية فانتعشت الآمال ، واتصل قاضي المدينة جعفر بن جحاف بالقائد المرابطي ابن عائشة فارسل إليه مجموعة من الجند . وحانت الفرصـة المناسبـة للثورة بخروج القمبيطور إلى سرقسطة فقامت بلنسية هبة واحدة تثور على القادر وأعوانه الإسبان وسيطروا على المدينـة . وهرب القـادر ولكنهـم وجدوه وأذاقوه مر العذاب قبل القتل سنـة ٤٨٥ / ١٠٩٢ ...وتسـلم ابن جحاف القاضي حكم المدينة بمعونة مشائخها . ودعا على المنبر لأمير المسلمين المرابطي يوسف بن تاشفين !

ولم ينتـه شؤم « القادر » عند هذا الحد ولكنه لحق بالثائرين عليه . رجع القمبيطور مباشرة بعد شهر من مقتل القادر فحاصر بلنسية بحجة أن الثوار قتلوا جنديين من جنوده كانا على باب القادر واستولوا على مؤنه المخزونة في المدينة . وسـار في الحصـار على نهج الأذفونش من نهب الزروع وتدمير المحاصيل ومنع المؤن عن الدولة . وزاد في التضييق على الناس حتى أشرفوا أو أشرف من بقي منهم بعد عشرين شهراً من الحصار على الهلاك من الجوع . واتفقوا على تسليم البلد وسلموا بشروط حسنة هي الأمان لهم في الأرواح والمال ومع بقاء ابن جحاف قاضياً ومدبراً للشؤون . وتبقى قوات السيد القمبيطور خارج البلد لا تدخلها . ويتسلم أبوابها وزير القادر ابن عبدوس الشخصية الموثوقة من السيد .

لكن القمبيطور ما لبث بعد أقل من سنة أن نقض معظم هذه الشروط واعتقل ابن جحاف مع آله وقرابته واستصفى أموالهم بحجة استخراج الأموال التي أخذوها من القادر . ثم حكمهم وأخذوا في اعتصار الأغنياء ...جمعهم

في القصر وطلب منهم دفع سبعمائة ألف دينار . وأقام محرقة كبيرة في ساحة البلد لم يتمكن أهلها من إنقاذ الأطفال منها إلا بشق الأنفس أما ابن جحاف فأحرق ...وسلم إدارة المدينة لليهود ليبالغوا في النكال بالمسلمين ...وهرب الناس من المدينة يتسللون ...

دام هذا سنة أخرى ...قضى بعدها القمبيطور فأراح واستراح ...

ومن يجعل الرئبال بازاً لصيده تصيده الرئبال فيما تصيدا !

معركة الزلاقة

أكاد أوقن أن أحداً منكم لم يسمع شيئاً عن هذه المعركة ولا عن الزلاقة ولا المنزلقين فيها ، مع أنها إحدى معارك الإسلام الكبرى . أما زمانها فسنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ . وأما المكان ففي قلب الأندلس ، وأما من التقى فيها فصفوة الجيوش الإسلامية والإسبانية معاً ...وأما نتائجها فسوف نرى في النهاية ماذا كانت النتائج ؟

حين اشتدت وطأة الدول النصرانية في شمال الأندلس على إمارات ملوك الطوائف واستكانت هذه الإمارة بسبب تفرقها وتناحرها للمذلة وظهر في الأفق النصراني الفونسو السادس (الأذفونش) وتسمى بملك الديانتين الإسلامية والمسيحية . اتجهت أنظار الناس والفقهاء في الأندلس إلى دولة المرابطين الناشئة بقوة في العدوة المغربية ...على أن أمراء الأندلس كانوا يترددون خوفاً على عروشهم . وإن كان بعضهم كالمعتمد بن عباد في إشبيلية والمتوكل صاحب بطليوس قد دخلوا في علاقات مكاتبة ومودة مع يوسف بن تاشفين الذي تسمى هناك باسم أمير المسلمين !

لكن ميزان القوى اختل والخطر الاسباني كان يتفاقم ويدفع الأمراء دفعاً إلى هذا الحل الوحيد : استدعاء المرابطين للنجدة ما دام الحل الثاني أي الهجرة والجلاء صعباً مهيناً ! وقد اعترض الراشد ابن المعتمد عند أبيه على دعوة المرابطين القساة والمنافسين الخطرين فقال المعتمد : لا تتهمني الأجيال المقبلة بأني تركت الأندلس غنيمة بيد الكفار ولا أحب أن يلعن اسمي على المنابر ولو ترك لي الخيار فإني أؤثر من كل قلبي أن أكون راعي جمال في أفريقية

على أن أكون راعي خنازير في قشتالة !...أما الآخرون من الأمراء فكانوا يقولون له « هل يجمع السيفان ويحك في غمده » ؟!

على أي حال تحرك في النهاية وفد من قضاة بطليموس وغرناطة وقرطبة يرافقهم وزير المعتمد ابن زيدون (ولد الشاعر المعروف) يفاوضون سلطان المرابطين في المغرب . ونجح المسعى بعد تردد وقطع ضمانات . واستشار يوسف الفقهاء ثم حدد موقع نزول قواته على الشاطئ الأندلسي في الجزيرة الخضراء . واستنفر السلطان من قدر على استنفاره من جيشه من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو سبعة آلاف فارس عدا ضعفهم أو يزيد من الرجالة . فعبر بهم من مدينة سبتة إلى الجزيرة الخضراء . وكان الراضي ابن المعتمد أميراً فيها . فحار يستقبلهم أم يمنعهم ؟ وأرسل على الحمام الزاجل رسالة لأبيه يسأله فجاء الجواب باستقبالهم وإخلاء الجزيرة لهم ، والانسحاب إلى بلدة رندة .

وبعد أن تكامل وصول الجيش المرابطي واستكملت أسباب تحصين المدينة وتزودت بالمؤن والذخائر وتحرك يوسف السلطان إلى إشبيلية بمعظم قواه . وخرج المعتمد لاستقباله وهم بتقبيل يده لولا أن تعانقا عناق الإخلاص والسرور بتفريج الكرب والوقوف للعدو المتربص . وتبادل الاثنان الهدايا التي أعطت يوسف فكرة عن غنى الأندلس وترفها . وانضم إليهما عند إشبيلية ابنا أمير غرناطة وتميم أمير مالقة . وأرسل صاحب المرية كتيبة من الفرسـ . على أن العمود الفقري للقوة إنما كان جيش السلطان يوسف المرابطي . وحين سألوه : أين يريد أن يقصد ؟ فقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت إليه !

كان الأذفونش حين نزل المرابطون الأندلس يحاصر أحد الحصون الإسلامية عند سرقسطة فما سمع الخبر حتى بعث يستنفر كل القوى النصرانية حتى في فرنسا وحتى البابا . استنفر الصغير والكبير ولم يدع في

أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء يجر الشوك والشجر وإنما كان قصده قطع كشوف البربر المغاربة وتطلعهم إلى الأندلس أما ملوك الأندلس فلم يحسب لهم أي حساب فلم يكن منهم أحد إلا وهو يؤدي له الأتاوة . وكانوا أحقر في عينه وأهون من أن يحتفل بهم !

وكان من مكر الأذفونش أنه أراد أن يكون اللقاء على أرض المسلمين حتى إذا هزم عاد إلى أرضه لذلك انحدر بمجموعه إلى مكان لا يبعد كثيراً عن بطليموس يعرف بالزلاقة ويسميه النصارى سكر الياس ولم يكن قد انتهى من ضرب خيامه حتى وافاه كتاب من السلطان يوسف يدعوه فيه على الطريقة الإسلامية إلى إحدى خصال ثلاث : إما الإسلام وإما الجزية وإلا فأذن الحرب ! فاستشاط غضباً وكلف أحد كتابه بأن يجيب أن ما كان ينتظر أن تصل القحة بالمسلمين الذين يعطونه الجزية منذ سنتين أن يطلبوها منه . وقال إن لديه جيشاً يستطيع إنزال العقوبة البالغة بأعدائه . ولما قرأ يوسف كتابه كلف أحد كتابه بالرد ، فلما رآه أطال أخذ كتاب الأذفونش وكتب خلفه : الذي يكون ستراه !

وحين تراءى الجيشان رأى يوسف من جيش الإسبان ما هالهم من كثرة العدد والسلاح والخيل وظهور القوة . فقال : ما كنت أظن هذا الخنزير يبلغ هذا الحد ! واختلفت الرسل بين الطرفين لتقرير موعد الزحف ، فقال الأذفونش ــ وكان اليوم يوم خميس ــ الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا ، وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم والأحد لنا فإذا كان يوم الأثنين كان الزحف .

وكان في هذا الحديث مخادعاً خدعة أدركها المسلمون . إنه يريد أن يفتك بهم وهم في صلاة الجمعة . فأمر يوسف فلبسوا لباس الزينة للصلاة من تحت درق الحرب وبالسلاح الكامل ، فما قعدوا من الركعة الأولى حتى كانت خيل الأذفونش تثور في وجوههم ...

ودارت الحرب . كان الأندلسيون في المقدمة وجيش يوسف في المؤخرة ، ولا يزيد الجميع على عشرين ألفاً في حين كان جيش الأذفونش يعد ما بين خمسين إلى ستين ألفاً . وقد بعث المعتمد إلى يوسف أن يسرع بجيشه إليه ولكنه لم يصل وفر الكثير من الأندلسيين إلا الإشبيليين الذين قاوموا الصدمة ريثما وصلتهم نجدة صغيرة مغربية فساندتهم ...فأين كان جيش يوسف ؟ كانت خطته أن ينقض من خلف الجيش الإسباني على بغتة ويقوم بمذبحة هائلة في الجنود الموجودين فيه والحرس ويشعل فيه النار حتى إذا عادوا لحمايته تلقاهم المغاربة بالسيف . ونجحت الخطة كل النجاح !

وجد الأذفونش نفسه بين نارين والجيش المرابطي خلفه هو الأقوى فعاد يقاتل على جبهته ولكن عبثاً ...وعاد الفارون من الأندلسيين فنظموا صفوفهم وانقضوا من أمام على العدو المحصور وجرد يوسف حرسه الاحتياطي من السودان فحملوا على القشتاليين حملة منكرة أتوا فيها بالعجائب . وتمكن سوداني منهم من الأذفونش فطعنه بخنجره في فخذه ...حتى أقبل الليل ...فإذا بجيش الأذفونش قد تمزق شذر مذر . ومعظمه على أرض المعركة بين جريح وقتيل . أما الأذفونش فلجأ إلى الفرار يحيط به خمسمائة من جنده ...

ولم يتعقبه يوسف ولا تعقب فلوله . اكتفي بالنصر لأنه تلقى خبراً بوفاة ابنه في المغرب ! وغطت دموع الفرح على دموع الحزن عنده !

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾

ــ صدق الله العظيم ــ

الوصولي ...ذو الوجوه السبعة !

كان لنا صاحب وصولي يغير جلده مع كل ريح ويدير لسانه مع التيار . واتفق أن كنا في سمر نتحدث . وكلنا في ضيق من وجوده وانتهازيته . فقال أحد الأصحاب :

ـــ هل أحدثكم بحديث الوصولي ذي الوجوه السبعة ؟ إنها حكاية أندلسية .

وأنصتنا جميعاً له . قال :

قبيل أواسط القرن السادس الهجري سنة ١٢ / م حين كان حكم الأندلس يتأرجح بين المرابطين وخصومهم الموحدين ، ثارت الأندلس وأعطت بثوراتها الضربة القاضية للمرابطين . في شرق الأندلس قام بالثورة القضاة والفقهاء ، وأما في غرب الأندلس فقام المتصوفة بزعامة حركة عرفت بحركة المريدين ...كان صاحبها من أسرة عريقة الجاه في منطقة نافارا اسمه أحمد بن الحسين بن قسي وكان من أكثر المتصوفة جمعاً للمريدين وتنظيماً لهم . تتلمذ على أبي العباس بن العريف ونجا مما حل بشيخه هذا مع زميله ابن برجان اللذين نفيا إلى المغرب وتوفيا هناك ، أو لقيا حتفهما بشكل أو بآخر . وأصل ابن قسي من بلدة شلب عمل في الدولة أولاً كمشرف ثم كمسؤول مالي إلى أن وجد أن سبيل التصوف أولى فتصدق بجميع ماله . ودخل عالم الصوفية ! أو ساح في أرجاء الأندلس . ثم ابتنى رباطاً بقرية من قرى بلده والتف حوله من المريدين جمع كبير فادعى الولاية . وتلقب بالمهدي . ونظمت حوله

مجموعة من الكرامات حتى اتصل به زعماء الأسر في منطقته بغرب الأندلس وانضووا تحت جناحه ...

حتى هنا ليس في الأمر غريب لكنه ما إن رأى أن القوة توفرت له وأن الحكم المرابطي ضعيف حتى انقلب من صوفي ناسك إلى ثائر وإمام بكل ما في الكلمة من مضمون سياسي . استغل رصيده الصوفي سياسياً ليأخذ مكانه بين الحكام ! وكانت خطته في العمل احتلال حصن منيع يتخذه قاعدة ينشر فيها الثورة ونجح أحد أتباعه في تحقيق هذه الخطوة فاحتل بالحيلة والخدعة ، بعض الحصون حوالي سنة ٥٣٨ لكنه لم يستطع الاحتفاظ به فاستنزل منه وقتل . ولوحق ابن قسي إثر ذلك فهرب إلى جهات مرتلة قرب بلدة شلب في أقصى الجنوب الغربي للجزيرة ونزل على قوم يعرفون ببني السنة وكان منهم محمد بن يحيي المعروف بابن القابلة أكثر مريديه قرباً منه . لأنه كان مختصاً بكتابته وأسراره . وكان ابن قسي يدعوه بالمصطفى ! واستطاع ابن القابلة أن يحتل حصن ميرتله بخدعة أيضاً سنة ٥٣٩ وأعلن فيه بدعوة ابن قسي الذي وصله في جمع من مريديه بعد ثمانية عشر يوماً فدخلوه مهللين مكبرين !

اتخذ ابن قسي من ميرتله قاعدة لتحركاته ودعا منها أتباعه المنتشرين في غرب، الأندلس إلى التحرك والثورة فلبوا النداء واستطاعوا خلال شهر بسط سلطان حركة المريدين على مناطقهم . سيطر رجل يدعى ابن العزيز مشهور بفروسيته على بلدة يابرة . وقدم معونة من الجند لمحمد بن عمر بن المنذر في شلب ليسيطر عليها . وكان هذا في الأصل رجل علم وفقه أهله لارتقاء خطة الشورى في بلده . فقام بعد السيطرة على شلب بطرد المرابطين من حصن بجواره فلم يبق له سوى باجة التي وجدوا أنفسهم فيها محاصرين بقوى ابن وزير في الشمال وقوى ابن المنذر في الجنوب فعرضوا تسليم البلد مقابل تأمينهم للوصول إلى إشبيلية . وأمنوا ...

قدم الثائران المظفران إثر ذلك على إمامهما ابن قسي في ميرتله وبايعاه بالإمارة وتقبل ذلك منهم بوصفه أمير المؤمنين وعينهم واحداً على باجة وما يتبعها والآخر على شلب . وكان ابن المنذر أنشط من صاحبه فتوسع إلى الشرق وسيطر على ولبة وانتقل منها إلى لبلة ...فعلت مكانته لدى ابن قسي وخلع عليه لقب العزيز بالله ! وازدهى الغرور هذا العزيز وتشجع ليمد نفوذ المريدين إلى مدن الأندلس الكبرى فهزم في الشمال أمام إشبيلية ووجه ابن قسي نحو قرطبة فلقى الهزيمة نفسها ...

هل كان ابن قسي يقلد حركة المرابطين أو الموحدين بحركة من مثلها أندلسية ؟ قد يكون ولكن مدى الحركة والمريدين يكشف عن مدى الصغار الذي انتهى إليه رجال الأندلس . وضآلة المطمح ! فبعد هزيمتي إشبيلية وقرطبة توقف التوسع في حركة المريدين وتبعه — كالعادة — انقسام بين صاحب القوة العسكرية الأولى في الحركة وهو ابن وزير وبين صاحب المبدأ ابن قسي الذي حرض ابن المنذر على مهاجمته . ولكن ابن وزير هزم صاحبه وسجنه ثم أمر بسمل عينيه ثم قبض على ابن قسي نفسه فترة من الزمن ...عرف فيها هذا الرجل أن المغامرة الصوفية شيء والمغامرة السياسية شيء آخر . وأن جبة الصوف مهما ثخنت لا تخفى المطامع الدنيوية ولا تغني شيئاً أمام مطامع الآخرين ...ولكن هل أقلع عن التقلب والوصولية ؟ أبداً !

لقد أطلق ابن المنذر سراح إمامه ابن قسي وصرفه إلى بر العدوة في المغرب وتحت إبطه أحلامه التي أجهضت في اختطاف شيء من الحكم وأصبح ابن المنذر سيد المنطقة حتى دخلها الموحدون ! وحاول ابن قسي أن يتقرب من الموحدين . ورد مع الوفود الأندلسية على سلطانهم عبد المؤمن وهو في حصار تلمسان سنة ٥٤٠ فلم يؤبه له . لأن ادعاءه المهدية يتناقض مع ادعاء الموحدين بالمهدية لإمامهم إبن تومرت . ثم عاد ابن قسي إلى لقاء السلطان عبد المؤمن نفسه وأعلن له أن هناك مهديين أحدهما مبشر بالآخر

فشبــه نفســـه بـالفجر الكـاذب تاركاً بذلك لإمام الموحدين نعت الفجر الصادق !! وطلب المعونة ضد ابن الوزير فلبى السلطان طلبه وبعث معه قوة يقودها براز المسوقي تقدمت في جنوبي غربي الأندلس فاحتلته ونصبت ابن قسي أميراً على شلب !! لكنه لم يلبث أن ثار هناك على الموحدين معتمداً على دعم خليفة ملك البرتغال ابن الرنق !!

لم يشعر هذا الوصولي ذو الوجوه السبعة بمدى صغر طموحه الذي اقتصر على مدينـة شـلب ولا بما يعنيهـا الاستعـانة بالبرتغـال ضـد أسيـاده الموحدين . الذي شعر بذلك هو شعب المدينة . حاكوا له مؤامرة من نوع مؤامرته تماماً . دبروا نزهة لابنه وقائده خارج شلب وأتت جماعة منهم برجل مكتوف إلى جوار الحصن وطلبوا الأذن بالدخول على الأمير ليرى رأيه في قاطع الطريق هذا . وما إن وصلوا إليه حتى تعاورته السيوف قتلاً ...والطريف أنهم نصبوا بدلاً منه زميله القديم ابن المنذر وكان أعمى !

استمع الرفاق إلى الحكاية . وقال صاحبنا الوصولي للمتحدث :

ــ لعـلك كنت تقصـدني بحكـايتك ؟ وقام مغضبـاً يقـول : والله لاجالستكم أبداً !

وقال واحد منا :

ــ من كان في ملابسه مسلة نخزته !

وانفجرت صاعقة من الضحك ! ولكنه ضحك كالبكا !

عبدان معاً في الحكم

حين تهزل الأمور فلا حد لهزلها . ترقص الميت أحياناً ، وتجعل العبد سيداً وتقيم من الصوفي بطلاً سياسياً ومن زهر الربيع حطب جهنم ! ولقد هزلت الأمور في عهد ملوك الطوائف ثم هزلت حتى لم يعد أي حدث بمستغرب أو بمثير للاستهجان !

خذ لك مثلاً قصة بلنسية ، هذا الثغر الأندلسي الذي يستحم بمياه البحر المتوسط وبين مدينتي طرطوشة ودانية . وكان في مطلع القرن الخامس الهجري يضج بالحركة والأشرعة والتجار والناس وإن كان يتبع حكم دانية . وكان فيه على رأس الحامية بعض مماليك هذا الحاكم ويعرف بمبارك . ورأى هذا العبد الصقلبي أن أمور الناس فوضى فخاض غمارها يغامر وثار على سيده واستقل . ولم يكن وحده فقد كان له معاون صقلبي ، عبد مثله اسمه المظفر ، فأشركه معه في الحكم . وكان الاثنان في الأصل عبدان للخدمة لدى أحد العامريين . ومع ذلك نجحا في حكم المدينة أميرين معاً . وتمكنا من الاحتفاظ بسيادتهما عليها حتى نهاية حياتهما بعد سبع وثماني سنين . وبقيا في إلفة عجيبة سواء في الإدارة أوفي التعايش داخل القصر ! وكانا يجهلان قضايا الإدارة وأساليبها فعالجا جهلهما بالاستعانة ببعض الكتاب الكبار من قرطبة . تماماً كما كان الخلفاء يستعينون بالوزراء . يأخذون ما يشاؤون من آرائهم ومشورتهم وتدبيرهم . وكانت معظم مدن الساحل قد وقعت بأيدي العبيد الصقالبة : فلا تسمع هناك تلك الأيام إلا أسماء خيرة أو لبيب ومجاهد ومبارك والمظفر ...حكاماً لهم الخيل والأرائك والعسكر المجر وقد كثر الصقالبة هناك

في تلك الفترة وبعدها كثرة كبيرة حتى صاروا كتلة عرقية يباهون العرب وحتى كتب بعضهم وهو أبو عامر بن أحمد بن غرسية رسالة في ذم العرب والتنقص منهم وتفضيل العجم عرفت برسالة الشعوبية مما أثار عليه عاصفة من الردود سجلتها الرسائل التي ردت عليه حتى بعد حين ...

ولم يكتف العبدان بما وقع تحت أيديهما من الملك . بل حاولا التوسع جرياً على سنة جميع ملوك الطوائف المعاصرين لهما . وليس أحد أحسن من أحد ! وأفلحا في مد سلطانهما على شاطبة . وهي قلعة حصينة إلى الجنوب من بلنسية كان يحكمها فتى صقلبي من الفتيان اسمه خيرة فتم استخلاص المدينةالمحصنة منه بالحيلة . إذ دعياه إليهما ودسا له السم في الطعام . ويبدو أن ذلك كان بالاتفاق مع نائبه الذي كان من أنصار مبارك وأعوانه والذي حكم البلد بدلاً من حاكمها المسموم .

وما كان نجاح العبدين واستمرار حكمهما مرتبطاً بسياستهما العادلة أو بحسن علاقاتهما مع الناس فقد كانا أقرب إلى الظلم ولكنهما كانا ماهرين في استخراج وسائل القهر والتسلط أما فيما عدا ذلك فلم تكن سياستهما تختلف عن سياسة ملوك الطوائف الأخرى في الداخل . فقد عملا مثلهم على احتكار المصدر الرئيسي للثروة في البلاد وهي الأرض الزراعية . وكانت وسيلتهما للتملك فرض الضرائب الباهظة والمغارم عليها لدرجة يعجز أصحابها معها عن الدفع فينزحون عنها . وعند ذلك يعتبرونها ضياعاً مستخلصة أي أملاكاً خاصة بالحكم . وحين اضطر بعض النازحين للعودة لم يقبلا بإرجاع أملاكهم إليهم . بل أجبراهم علىالعمل في أراضيهم السابقة نفسها كأجراء مقابل نسبة معينة من المحصول .

وقد ساعد العبدين الحاكمين في ذلك توفر الأيدي العاملة في المدينة فقد فتحاها للعبيد الآبقين يلجؤون إليها فتكاثروا هناك . وتوافر العمال الزراعيون وتقنياتهم الزراعة في الري نتيجة هجرة الجماعات القرطبية الهاربة من

الفتن والقتل هناك ، خلال فتنة البربر ودخولهم المدمر للمدينة . فجاء قسم منهم واستقر في بلنسية ، يعمل في الزراعة وهذا وذاك زود الحاكمين بواردات ضخمة بالغا في التنعم بها . وشاركهم في ذلك العاملون معهم . لدرجة أن بعض هؤلاء الزراعيين بنوا القصور وأنفق بعضهم مائة ألف دينار في بناء قصره !

ولم تحاول بلنسية والمتنعمون فيها ، في هذه الفترة التورط في حروب قد تفسد عليهم نعيمهم وراحتهم واكتفوا بعمل دفاعي بحت هو إحاطة المدينة بسور يحميها . وساق الحاكمان الناس مسخرين لإقامة هذا السور كي يساعد من صد أي هجوم عليها . ولعل الحرب الوحيدة التي شاركا فيها هي تلك التي كانت ضد منذر بن يحيى التجيبي وكانت بدورها حرباً دفاعية فقد كان يطمع في أخذ مدينة طرطوشة الموجودة في الشمال من بلنسية وسقوطها في يده يجعل التجيبي جاراً لهما وقد يهددهما بتزايد قوته وأطماعه لذلك أنجدا صاحبها بدوره واسمه لبيب ومكناه من أن يلحق الهزيمة بالتجيبي وقتل ابن عمه وصفيه .

دام حكم العبدين المشتركين سبع سنوات في بلنسية ثم هلك مظفر وانفرد مبارك في الحكم فلم يطل به الأمر أكثر من سنة أخرى ثم هلك بدوره أواخر سنة ٤٠٩ . وعادت بلنسية بعدهما ثلاث سنوات إلى حكم مجاهد العامري (وهو بدوره من أكبر عبيد الصقالبة) وصاحب ثغر دانية . وكان يتداولها مع لبيب صاحب طرطوشة ...

هل كان عجباً حكم العبيد ؟ أبداً فقد كان ذلك يحدث في كل مكان . وحدث كثيراً في المشرق الإسلامي من كافور الأخشيدي وقواد الترك إلى آخر المماليك ...

العجب إنما كان في الثنائي الحاكم كأنه فرد واحد . وما عرف مثل ذلك في شرق ولا غرب !

معركة شنترين

شنترين بلد في غرب الأندلس ، في البلاد التي نسميها اليوم البرتغال . ومعركة شنترين كانت سنة ٥٨٠ كانت نتيجة غلط في فهم كلمة ...ولكنها وقعت وكان لها نتائجها هذه الغلطة .

كان ذلك قبل معركة صلاح الدين في حطين بثلاث سنوات . دولة المرابطين كانت قد دالت في الأندلس قبل أربعين سنة وحلت محلها دولة المغاربة الموحدين ...

وفي تلك الفترة كان على رأس الدولة أبو يعقوب يوسف الموحدي . وفي أقصى غرب الأندلس لم يكن الوضع مستقراً على الحدود مع الدولة البرتغالية الناشئة . فقد استغلوا انشغال الخليفة بالهجوم على بلدة (وبذة) في الشرق ليقوم فارسهم جيرالدو سين بافور الذي يسميه العرب غرانده أي الكبير وتنعته المصادر الإسبانية بالسيد البرتغالي بضربة مفاجئة لمدينة باجة الواقعة في عمق الأراضي الإسلامية ويحتلها سنة ٥٦٨ .

ورأى ملكه الذي يدعوه العرب بابن الرنق أنها بعيدة عن بلاده ويصعب الاحتفاظ بها فهدم أسوارها وأحرقها وحمل من وجده من أهلها معه كأسرى بعد إقامة دامت فيها حوالي ثمانية أشهر ! وقد ارتاح الموحدون في هذه الفترة من ملوك الإسبان لأن المنازعات بينهم كانت — كما جرى لملوك الطوائف قبل قرن — تدفعهم لمهادنة الموحدين والخلاص من مواجهتم بالحرب والعدوان . وخشي ملك البرتغال بدوره أن يبقى وحيداً في الميدان تجاههم فعقد معهم سلماً مدته خمس سنواتٍ ...

وهكذا رأى الفارس غرانده نفسه دون عمل . فحذا حذو ملكه وعرض خدماته على الموحدين فقبلوه ، خلاصاً من شره ، ونقلوه للإقامة بمنطقة السوس في المغرب . ولم يخلوه من المراقبة التي كشفت أن ولاءه لملكه أقوى وأنه يحرض هذا الملك ويشجعه على نقل غارات أسطوله إلى شواطئ السوس في المغرب ! فنقله الموحدون مرة أخرى إلى الداخل . وفصلوه عن أتباعه وجنده وأنزلوه في سجلماسة الصحراوية حيث لقي حتفه !

ركن أبو يعقوب إلى السلم المعقود مع الدول الإسبانية ولم يستفد من الانقسامات التي تمزق صفوفهم والتي ما لبثت أن زالت حتى أن صديقه القديم فرناندو الثاني ملك ليون عقد اتفاقاً مع ملك قشتالة على ألا يسالم أحد منهما الموحدين ! وقامت الغارات من جميع الجهات على الأرض الإسلامية . وكانت الصادرة منها عن البرتغاليين أبعدها مدىً وأوسعها نطاقاً . إذ أنها لم تقتصر على البر بل تعدته إلى البحر ووصل بعضها إلى سبتة في شاطئ المغرب .

لهذا بدأ أبو يعقوب الاستعداد لحملة كبيرة توجه ضد البرتغال . وإلى قاعدة انطلاق غزواتهم مدينة شنترين . على مصب نهر تاجه . وأعد لهذه الحملة بمنتهى التأني والبطء أيضاً . أقام في المغرب يعدها عدة شهور . ثم بدأ بالسير ببطء أيضاً . استغرقت مسيرته من إشبيلية إليها عشرين يوماً . وهذا البطء سمح للبرتغاليين بالوقت الكافي لتحصين المدينة وإمدادها بالمؤن والذخائر .

وبعد أن وصلت طلائع الجيش الموحدي مشارف المدينة سنة ٥٨٠ أوئل الصيف انتظر يومين حتى احتل ربض المدينة . واختبأ البرتغاليون وراء الأسوار ينظرون . لم يسبق أن وصل جيش بهذه الكثافة وهذه القوة إلى هذه المناطق النائية من شبه الجزيرة . المعارك التي تلت ذلك لمدة ثلاثة أيام كانت من الطرفين مجرد جس نبض لمدى القوى . وعرف البرتغاليون أنه من الصعب جداً دفع هذه القوى إلى الوراء فقرروا الدفاع والمراقبة ...

على أن أمراً بوقف القتال صدر من السلطان يوسف أبي يعقوب ثم

صدر أمر ثان في الليل بالتحرك وعبور نهر التاجه إلى الضفة الثانية . وحددت للانتقال خطة تقضي بسير الأثقال أولاً في الصباح ثم تحرك كل قطعة أو كل قبيلة في وقت محدد لأن جسر الانتقال بين الضفتين لا يتسع للتحرك الجماعي الكثيف .

لكن الأوامر لم تنفذ على ما وردت . وسارعت كل جماعة في الليل تسبق غيرها في العبور . والخليفة في مضاربه لا يدري بما حصل . فيما كان التسارع والتضارب على عبور الجسر يأخذ مداه . وكان البرتغاليون يرصدون ما يحصل من أعالي الأسوار . وفي الصباح رأوا بقاء مضارب الخليفة المميزة باللون الأحمر والألوية في مكانها ودون حماية كافية . فخرجوا من الأبواب في هجوم استهدف هذه المضارب وصاح صائحهم :

ـــ الري ! الري ! أي الملك ! الملك .

ودارت معركة غير متكافئة بين الطرفين سارع فيها الحرس وأعداد ممن بقي حول السلطان للدفاع عنه ولكنه مع ذلك أصيب بعدد من الجراح قبل أن ينظم أمر انسحابه مع من بقي معه عبر النهر . ورأت الحاشية أن الجراح خطرة تهدد حياة السلطان فطلبوا من الجيش الانسحاب والتراجع . وفيما كان يعبر بلدة يابرة توفي السلطان متأثراً بجراحه !.

لا تأتي المصادر العربية على بيان السبب في صدور أمر السلطان بالانتقال إلى الضفة الأخرى من نهر التاجة . لكن واقع المعركة يفسره فقد وردت الأخبار للسلطان بأن فردناندو الثاني ملك ليون دخل أرض البرتغال لنجدة شنترين . وهذا ما يوقع الموحدين في مواجهة جيشين في وقت معاً . وهم في منطقة ضيقة والنهر من ورائهم فأراد السلطان أبو يعقوب أن يجعل النهر حاجزاً بينه وبينهم ويتحصن به بالنزول خلفه !...

وكانت غلطة فهم من الذين تلقوا أوامر التحرك ...

ذهبت بالسلطان وبالجيش الموحدي وبالنصر المؤكد !

ابن مردنيش

الاسم له في الآذان وقع الأسماء الفرنجية . ولعله قوطي إسباني أصله مارتينز أو ماردونيوس لكن الأسرة كانت شهيرة في الجند الأندلسي الاسلامي أجيالاً فهي تنتمي بالولاء إلى قبيلة جذام وإن لم تكن قديمة العهد بالإسلام وقد يكون جدها الأعلى مردنيش هو الذي أسلم لكن صيت الأسرة ارتفع بدفاع سعد بن مردنيش عن مدينة إفراغة الاندلسية الدفاع المجيد ضد جيش أراغون الذي حاصرها ثم هزم أشنع هزيمة سنة ٥٢٨ وأسهم بذلك في تحقيق نصر للمسلمين في زمن تعودوا فيه تلقي الهزائم !...

ولا يتعلق حديثنا بسعد هذا ولكن بابنه محمد بن سعد ! كان الرجل يعمل لدى قائد من الجند يحكم مرسية اسمه ابن عياض لكنه لم يبق هذا الحاكم سوى عامين ثم قتل سنة ٥٤٢ أواخر سنة ١١٤٧ في حرب مع الإسبان . وكان ابن مردنيش في الأصل مجرد خادم عنده يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه ...لكنه لم يبق كذلك بل ارتقى حتى أصهر إليه وجعله ابن عياض نائباً عنه في حكم بلنسية فلما قتل خلفه على مرسية أيضاً . ولم يعارضه أحد فقد كان معتمداً على قوة الجند التي كانت في ذلك الوقت من عصر ملوك الطوائف القوة الوحيدة المتماسكة وزاد في قوته أنه سمع وهو في الطريق بغدر العدو بحصن جلال فكر عليهم وافتتحه .

كان بين السلف والخلف سمة مشتركة هي الشجاعة والقدرة . فقد كان ابن عياض يقوم في المعارك مقام مائة رجل . وقام ابن مردنيش بأعمال تدل على أنه ليس أقل من قائده قدرة وبأساً . وفيما عدا ذلك فقد كانا

متناقضين . عرف الأول بتقاه أما ابن مردنيش فكانت صفاته مرآة عكست أصله وموقعه وظروفه . وصفوه بأنه مال إلى القيادة وسنه إحدى وعشرون سنة ، وأنه كان إلى الشجاعة والشهامة ، بعيد الغور ، قوي الساعد ، أصيل الرأي ، بعيد العفو ، مرهوب العقوبة ، مؤثراً للانتقام ، عظيم القوة في جسمه ، وله فروسية ورياسة ولكنه « آثر زي النصارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم » فهو في مظهره إسباني لا عربي مسلم . وكان في عاداته بعيداً عن أن يكون كذلك ، إذ كان له مجلسان للشراب والمجون يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع مع قواده ، وبحضور القيان بمزاميرهن وأعوادهن . ونظراً لحاجته إلى الجند وكونه في منطقة حدود فقد أدخل في جيشه كثيراً من المرتزقة الإسبان وهيأ لهم الجو الذي يتمتعون فيه بممارسة نمط الحياة التي ألفوها في بلادهم . أفرد لهم في مرسية حياً قامت لهم فيه الحانات والكنائس وأقطع أحد قوادهم منطقة شنتمرية (أو السهلة) وسمح له فيها بإقامة أسقفية . وكان يشركهم معه في لهوه ومتعته حتى ملك قلوبهم !...

في مثل هذا النموذج من الحكام لم يكن ثم قيم للإسلام أو عروبة ، ولكن للحكم والحكم فقط . وكان ــ على ما يبدو ــ حين يستكثر من الجند ينظر إلى تقوية دويلته في وجه الموحدين لا في وجه الاسبان . وهو أمر يدل عليه نوعية الجند واحتماؤه بالطواغيت من الإسبان . فصالح أول أمره صاحب برشلونة على إتاوة سنوية يدفعها . ثم صالح الفونسو السابع ملك قشتالة على إتاوة أخرى تبلغ في مجموعها خمسين ألف مثقال ذهباً . وقاده هذا إلى الإجحاف بالرعية في الضرائب ، فزاد في كمية المعروف منها واتخذ حوانيت لبيع الأدم والمرافق . وجعل على الأغنام والبقر مؤناً غريبة . وابتدع ضرائب جديدة بلغت في ضريبة الأرض حداً يزيد على مردودها . فصار الفلاحون يتركونها . واعتبر ذلك ابن مردنيش كالفرار من الغزو والفار تلحق

أراضيه بأملاك الدولة . أما القبالة أي الضرائب المفروضة على ما يباع في الأسواق فوصلت إلى ما يعادل الثمن الأصلي . واستحدث إلى هذا ضرائب غريبة فرضها على الملاهي والأعراس وكل احتفال حاشد حتى ولو كان مأتماً ...وكان جباته يعسون في الليل فما يسمعون بغناء أو بكاء أو لهو إلا جاؤوا صباحاً يطلبون ضريبة ذلك وإلا فالسجن والعذاب !

استمر حكم ابن مردنيش أكثر من ربع قرن نتيجة عوامل عدة أولها تبعيته للإسبان ودفع الجزية لهم وبعده عن قواعد دولة الموحدين في غرب الأندلس وقيام حاجز من الثوار بينه وبينهم واستيعابه للثوار في القواعد المجاورة له عن طريق التحالف والتصاهر . وقد توسع بكثرة جنده حتى صار يلقب لدى المؤرخين بملك الشرق الأندلسي إذ كان في حكمه عدا بلنسية ومرسية وشاطبة ودانية ما احتله من مدن جيان وأبدة وبياسة وبسطة ووادي آش وقرمونة واستجه . ونزل قرطبة وإشبيلية ودخل غرناطة سنة ٥٥٧ وكاد يستولي على جميع بلاد الأندلس !...والله يمد للظالمين مداً . حتى إذا ...

وجاءت هذه « الإذا » بعد كل هذا الامتداد إذ استنجد به صهره ابن هَمُشك في غرناطة فخرج ابن مردنيش بنفسه في العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى . ونزل غرناطة في الربوة السامية المتصلة بربض البيازين والتي ظلت تعرف بعده بكدية مردنيش . وجاء جيش الموحدين فكانت الدبرة والهزيمة على ابن مردنيش وصحبه . فهرب بنفسه ولحق ببلدة جيان . ثم اتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ٥٦٠ فلم يكن له بعده ظهور ...وانقلبت حظوظه بؤساً .

وكما جاءه هذا الملك رهواً هيناً ذهب رهواً هيناً . وكما خان دينه وقومه ، خانته القوى التي حشد بالمال والمظالم . وظهر عليه الموحدون بلداً بعد بلد يستأصلون شأفته ويستخلصون ما بيده . وأوقعوا بجنده الوقائع العظيمة إلى أن

حوصر في مدينة مرسية واتصل حصاره فمات أثناء الحصار سنة ٥٦٧ وله ثمانية وأربعون سنة !!

هل انتحر من اليأس ؟ قد يكون . ولكن ابنه المسمى أبا القمر استمع لنصائح القادة والأشياخ بالتسليم للموحدين فاستسلم وألقى باليدين إليهم ونزل على عهد ورسوم ...

ومضى ابن مردنيش كأن لم يكن أكثر من فقاعة هواء ...

فهل يعتبر المعتبرون ؟

ابن هَمُشك المغامر المتقلب

هو مغامر غريب ممن أفرزتهم مرحلة الفوضى وضياع القيم ايام عصر ملوك الطوائف يبيع خدماته للجميع دون رادع من ولاء أو دين . وقد اشترى خدماته كثيرون لخبرته في الأرض والحرب وهكذا لم يدع قوة في الأندلس يومذاك إلا عمل معها وضدها ولم يغادر جماعة إلا واتصل بأخرى تناهضها . ولا عجب فهو رومي الأصل . وهمشك وتعني بالإسبانية المصاب أو المقطوع أو الأجرد لقب لجده الذي أسلم على يد بعض أمراء بني هود في سرقسطة . نزح إليهم وكان مقطوع الأذنين فكان النصارى إذا رأوه في القتال عرفوه وقالوا همشك فبقي له اللقب ولبنيه .

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة نشأ ابراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك تحت خمول . إلا أنه شهم متحرك . خدم بعض الموحدين في الصيد باعتباره يعرف الأرضين والطرق ثم نزع إلى ملك قشتالة واستقر مع النصارى فاستخدمه ملك قشتالة للسفارة بينه وبين ابن حمدين في قرطبة لمعرفته بالعربية . ثم تركه وانصرف إلى بقية « المرابطين » الموجودين في الأندلس بعد شفاعته وإظهار توبته ! ولما ولي يحيى بن غانية قرطبة وهو من أنصار المرابطين ارتسم لديه برسمه . ثم كانت فتنة ابن حمدين في قرطبة وتسميه بأمير المؤمنين فبعث به ابن غانية رسولاً إليه ثقة بكفاية ودربه وبسبب معرفته باللسان الأعجمي القشتالي لمحاولة الصلح . فنجح في الصلح ونبه قدره . ثم غلى مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس فاتصل بالأمير ابن عياض في مرسية وبغيره إلى أن أعطاه حصناً تحصن فيه ، ثم تغلب على مدينة شقورة وتملكها وهي ما هي من النعمة

والغنى فغلظ أمره ، وساوى محمد بن سعد بن مردنيش أمير الشرق الأندلسي وداخله حتى عقد معه صهراً على ابنته فتزوجها ابن مردنيش ، وأضحى بذلك سيفاً لصهره مصلتاً على من عصاه ! فقاد الجيوش وافتتح له بعض البلاد ...

يذكرون أنه كان بهمة من البهم أي صخرة صامتة . رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم سديد الرأي عارفاً بتدبير الحروب ، حمي الأنف ، عظيم السطوة لكن كان مرتكباً أيضاً للعظائم . متقلباً في العلاقات وفي الولاء . حليف فتنة وعدوان ولم يصحب قط متشرعاً أو رجلاً ديناً ولا نشأ في أصحابه من كان متورعاً . سلطه الله على الخلق وأملى له . فأضر بمن جاوره من أهل البلاد وحُبب إليه العبث في الناس والعباد ...ويضيفون إلى هذا أنه كان جباراً قاسياً فظاً غليظاً شديد النكال عظيم الجرأة والعبث بالخلق . بلغ من عبثه فيهم إحراقهم بالنار وقذفهم من الشواهق والأبراج وإخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم عن أوتار القسي بزعمه وضم أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض وربط الإنسان بينها ثم تسريحها حتى يذهب كل غصن بحظه من الأعضاء ...

على أن جبروته كان يمس ذاته وقد زعموا أيضاً أنه خرج إلى بعض المواضع متصيداً وفي صحبته محاولو اللهو وقارعو الأوتار والغناء في مائة من الفرسان ونقاوة أصحابه فماراعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة في مائتي فارس ضعف عددهم . فقالوا العدو في مائتي فارس فقال : أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن بقدرهم . ثم استدعى قدحاً من شرابه ، وصرف وجهه إلى المغنى وقال أعد إلى غناءك فغناه . ثم استقبل العدو وحمل بنفسه عليه وأتى على معظمهم القتل ورجع غانماً إلى غنائه !!

وفي سنة ٥٥٦هـ /١١٦٢م قصد إبراهيم بن همشك بجمعه غرناطة وداخل طائفة من ناسها مستغلاً فرصة انشغال أصحابها الموحدين بتفرق الكلمة في المغرب وغياب الوالي منها فاقتحمها ليلاً واعتصمت الحامية بقصبتها

فبادرهم بالحرب . ونصب عليهم المجانيق . ورمى فيها من ظفر به منهم وقتلهم بأنواع القتل . وحين عاد الوالي مسرعاً ، ووقف له بجيشه بمرج يعرف بمرج الرقاد انتصر عليه ابن همشك . واعترضت الفلول تخوم الفدادين وجداول الماء التي تتخلل المرج فاستولى عليهم القتل . وهرب الوالي إلى مالقة فدخل ابن همشك إلى غرناطة بالأسرى وأفحش فيهم المثلة والعذاب على مرأى من إخوانهم المحاصرين في القصبة ...

واتصل الخبر بالسلطان أبي يعقوب في المغرب فجمع الجند لولده الذي اجتاز البحر ونزل بجيشه وبمن انضم إليه من المطوعة والحاميات على غرناطة . فانهزم ابن همشك مع من استنجد به من صهره ابن مردنيش وجيشه شر هزيمة ! ولاذ بالفرار ...ثم فسد ما بينه وبين ابن مردنيش صهره إذ كرهت ابنته زوجها فطلقها وعادت إلى أبيها ابن همشك . وكانت إذ سئلت عن ولدها منه وإمكان صبرها عنه قالت : جرو سوء من كلب سوء ! لا حاجة لي به ! فصارت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً . واشتدت العداوة بين الطرفين وهلكت بينهما الرعايا !

بعد ذلك انقلب ابن همشك إلى ظل الموحدين ! ولاذ بهم واستجارهم ثم اجتاز بحر العدوة إلى المغرب . فقدم على الخليفة أبي يعقوب يوسف سنة ٥٦٥ واعتذر إليه واسترضاه حتى أقره بمواضعه التي هو فيها من الأندلس إلى أوائل سنة ٥٧١ . ثم طولب بالانصراف بأهله وولده إلى العدوة وأسكن سكناً إجبارياً في مكناسة حيث أقطع إقطاعاً حسناً ...لكنه لم تطل به الإقامة كثيراً هناك حتى ابتلاه الله بفالج غريب الأعراض شديد سوء المزاج فكان يدخل الحمام الحار فيشكو حره بأعلى صراخه فيخرج فيشكو البرد كذلك إلى أن هلك ! بعد أن ذاق في هذه المحنة ما الله به عليم من العذاب والآلام .

هل يوازي ذلك تلك المصائب والرزايا والآلام التي أذاقها جبروت ابن

همشك في حياته للناس ؟ يقولون إن بعض الصالحين رآه في النوم بعد وفاته فسأله ما فعل الله بك ؟ فأنشد :

من سره العيش في الدنيا بخلقة من — يصور الخلق في الأرحام كيف يشا

فليصـبر اليوم صـبري تحت بطشه — مغـللاً يمتطي جمر الغضـا فرشـا !

مجاهد العامري

الحاجب المنصور ابن أبي عامر الذي اختطف الحكم من الخلفاء الأمويين في الأندلس مزيحاً الخليفة هشام المؤيد بيد والجند العرب باليد الأخرى . اعتمد في دولته على عبيده الذين عرفوا بالعامريين وبالصقالبة وأكثر منهم فلما مات انحاز الكثير منهم إلى السواحل الشرقية من الأندلس المطلة على البحر الأبيض المتوسط . وكانت لهم دول هناك ولهم تاريخ يطول سجلوا أسماءهم فيه كأمراء للناس : مبارك . يعلى . نبيل . خيرة . لبيب . المظفر . خيران . مقاتل وكانوا قواد الجند فتمكنوا من بسط نفوذهم على مناطقهم حين ضعفت السلطة المركزية وبخاصة بعد فتنة البربر في قرطبة العاصمة وتخريبهم لها سنة ٤٠٣ .

من هؤلاء مجاهد العامري ابن عبد الله . وابن عبد الله كان اسم التجهيل لآباء كل هؤلاء الصقالبة العبيد لأن مالكهم يتعمد قطع صلاتهم بآبائهم وعائلاتهم . بربط هذا الأسم العام : عبد الله فكل الناس عبيد الله . على أن مجاهداً تميز بين الفتيان حتى قبل انفراط عقدهم ، ويظهر أنه كان يعتبر شيخ الفتيان العامريين وكان يكنى أبا الجيش . كما تميز في تصرفاته بعد ذلك عنهم معطياً نفسه مكانة خاصة ضمن الآخرين .

كان في الأصل ممن أصبحوا موالي لعبد الرحمن سنشول الابن الثاني للحاجب المنصور والذي أنشب بطمعه الأعمى الثورة عليه في قرطبة . فلما كانت انسحب مجاهد فيمن تبعه من الجند الفتيان بعيداً عن الجزيرة الأندلسية كلها إلى الجزائر الشرقية (جزر الباليار) مليورقة ومينورقة ويابسة وتغلب عليها

وحماها ثم مد نظره بعد ذلك إلى البر الأندلسي فسيطر بقواته على بلدتي دانية وبلنسية . فصار هذا القسم من البحر المتوسط بين هذه المدن وبين الجزر بحيرة إسـلامية لمجاهد لا يسيطر فيه على تحرك التجارات فقط ولكن على تحرك الأساطيل الفرنجية التي أخذت تقاسي منه الكثير .

وسلك مجاهد مسلكاً متميزاً عن جميع الزعماء الخائضين في لجة الفتنة يومذاك ففيما كان هؤلاء جميعاً يتنافسون تحت راية هشام المؤيد المجهول المصير ، أو رايات المرشحين الآخرين من أحفاد الخليفة الناصر عبد الرحمن اكتفى مجاهد للحصول على الصبغة الشرعية لحكمه بتدبر رجل غير اندلسي عريق ولكنه من نسل أبي معيط الأموي ورد به أبوه إلى الأندلسي وعمره ست سنوات واسمه عبد الله المعيطي فنصبه خليفة في دانية ! وكان قد عرف بأنه أحد الفقهاء المشاورين في قرطبة وخرج في جملة الأشراف الذين أرغمتهم الفتنة على مغادرتها ! ولم يكتف مجاهد بالبيعة له ولكنه أثبت اسمه على السكة وفي الأعلام سنة ٤٠٥ واتخذ لنفسه لقباً خلافياً هو لقب الموفق . في حين كان الآخرون لا يزيدون في ألقابهم عن لقب الحاجب أو ما يماثله .

استمر حكم مجاهد لمنطقته البحرية (من الجزر والساحل) سنوات . ثم ثار الفتيان العامريون في بلنسية سنة ٤١١ وبايعوا أحد أحفاد العامريين فبدت هذه الدولة كالشوكة في شمال دانية عاصمة مجاهد . قامت هناك دولة مناوئة له ثم لم يلبث أحد الفتيان أن اجترح لنفسه دولة في أوريولة ومرسية في الجنوب فطوقت دولة مجاهد شمالاً وجنوباً ولم يستطع مجاهد عمل شيء لهؤلاء ولا أولئك لاستنادهم إلى قوى داخلية أقوى منه ...

واتجه طموح مجاهد إلى البحر في الشرق وماذا يفتح في البحر ؟ المياه بعيدة ومن ورائها جزر الفرنج . وغامر مجاهد فوق الماء إلى هذه الجزر . وكان التوسع عبر البحر هو مجاله الوحيد . وكانت عاصمته دانية على الساحل الأندلسي قبل ذلك لها تقاليدها في الغزو البحري . كانت منطلقاً لغزاة البحر

يصيبون منها الشواطئ الأوروبية في جنوب فرنسا وفي غرب إيطاليا وجزر سردينية وكورسيكا . وبها ينشأ أسطول البحر في أكثره لأنها دار إنشاء . والسفن واردة إليها صادرة عنها . وكانت الجزر الشرقية (الباليار) تشكل قواعد بحرية هامة في هذا السبيل . وهكذا قام سنة ٤٠٦ أو سنة ٤٠٧ أي بعيد قليل من إقامة دولته فتوجه إلى جزيرة سردانية (سردينية) وتغلب على أكثرها . وافتتح معاقلها وبدا كأن الحوض الغربي للمتوسط صار حوضاً لمجاهد . وزحف بمراكبه بعد ذلك إلى البر الطويل (إيطاليا) ونزل فيه قرب مدينة توسكانة وتحرك جنوده ليلاً للاستيلاء على المدينة ونالوا بعضاً منها ولكن المصادفة جعلت امرأة على الطريق تسمع ضجة الجند والسلاح وتركض إلى عمدة المدينة الذي أعلن بأجراس الكنائس الخبر للناس فاضطر جنود مجاهد للإنسحاب تاركين قتلاهم على الشوارع والساحل .

وعاد مجاهد يجرب حظه في سردانية بتثبيت أقدامه فيها واختط مدينة لم تفلح في الظهور لأن جنده شغبوا عليه وتواصلت أمداد الروم ضدهم حركها البابا . فعزم على الهرب من المضيق الذي حصر فيه أسطوله ، فلم يستطع لأن الروم ملكوا عليه المخرج . وغلبت على أكثر مراكبه بعد أن هبت ريح عاتية صرصر جعلت السفن يرتطم بعضها ببعض وتلقي بها العواصف إلى الساحل . وكان قناصة الروم يتصيدونها صيداً سهلاً ويقتلون من فيها . لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين ...

ووصل الحنق بمجاهد إلى البكاء ، وما نجا إلا بخمسة مراكب وأربعة قوارب فقط من مائة وخمسين . وكانت هزيمة بحرية وإخفاقاً ساعدت عليه الطبيعة نفسها لكن مجاهداً نسي في هربه أنه ترك على البر حريمه وبناته وابنه عليها ...وقعوا جميعاً في الأسر !

وحين وصل دانية بعد جهد وضنى وجد مصيبة أخرى ... وجد أن الخليفة المعيطي الذي عهد إليه بإدارة دانية أثناء غيابه قد استبد بالمدينة وعمل

على إزالة حكمه ومحو رسومه وأصدر النقود مصكوكة باسمه ! فراوده مجاهد حتى قبض عليه وسيره في البحر إلى أرض العدوة المغربية فأنزله في بجاية حيث أقام هناك بين البربر معلماً للصبيان ...

لم تنته قصـة مجاهد فقد بقي في حكـم إمارته في دانية حتى توفي سنة ٤٣٦ ...

لكن هل كان مجاهد أحد أبطال الإسلام الفاتحين ؟ أم أحد المغامرين الذين أفرزهم عصر الطوائف ؟...

ربك أعلم بما تخفي السرائر !

إقبـال الـدولـة

ليس هذا بعنوان يعني الإقبال والإدبار في الدول ولكنه لقب تلقب به ابن مجاهد العامري !...هل نذكره يا ترى ؟ حين انهزم أبوه مجاهد في المعركة البحرية بسردانية تركه مع أمه وأخوته ونسائه على الساحل وهرب ناجياً بنفسه إلى قاعدة ملكه في دانية . وأسر الجميع ولقد افتدى مجاهد بسرعة أكثر هؤلاء وبقي في الأسر علي بن مجاهد نفسه وكان في السابعة من العمر . مع أمه وأخته فقد كانتا نصرانيتين وفضلتا البقاء لدى أهل ملتهما . بقي علي أسيراً عشر سنوات وقد أهداه التوسكانيون الإيطاليون إلى امبراطور ألمانيا فنشأ في بلاطه على المسيحيـة وعلى التحدث بالرطانة الأعجمية والتخلق بأخلاق القوم وعاداتهم في اللباس والمظهر والتصرف . ثم توسط أحد بني حماد أمراء بني منآد في المغرب الأوسط وكانت له علاقات تجارية واسعة مع ألمانيا فأطلق سراحه .

عاد علي بن المجاهد إلى دانية غريباً كل الغربة فأدخله والده الإسلام وعلمـه اللغة العربية ومنحه بالتدريج الوظائف التي كان يحتلها أخوه الأصغر حسن فقد كان علي هو أكبر أولاد مجاهد . وكان أهم هذه الوظائف قيادة الجيش وأخيراً منحه ولاية العهد بعد أن كانت لأخيه ...ولقبه بإقبال الدولة .
تربع هذا الرجل بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٦ مدة ٣٢ سنة بحكم إمارة لم يكن له يد في إقامتها ولا توسعها . وكانت أهم الأحداث التي حصلت خلالها تآمر أخيه الحسن عليه لقتله بمساعدة واحد من عبيد صهره المعتضد بن عباد . امتلأ حقداً وحسداً لأبيه ولأخيه اللذين سلباه كل شيء بعد أن كان هو كل شيء .
وحين فشلت المؤامرة هرب الحسن إلى بلنسية ومنها إلى إشبيلية ...

كانت سياسة علي بن مجاهد أقل تقوى وديناً من سياسة أبيه وأكثر تسامحاً وعلاقات مع الدول الفرنجية . كان واحداً من ملوك الطوائف الذين تملأ مصلحتهم الخاصة كل الإطار أمام أعينهم فلا يرون غيرها . وهكذا اهتم علي بالتجارة والحصول على المال . « همته — كما قال بعض المؤرخين — في خراج يجبيه لا في معقل يجتبيه وهمه المتجر ينميه لا المفخر يحميه » . وقد بلغ من اهتمامه التجاري أن وصلت علاقاته التجارية إلى مصر . استغل فيها عام مجاعة وقحط لينال المال والنفائس مقابل المؤن والأغذية .

ومن الطبيعي وهو التاجر أن يهتم بحفظ السلام مع جيرانه من مسلمين ونصارى . وهكذا حاول توثيق علاقاته الودية مع ملوك الطوائف المسلمين عن طريق المصاهرة على طريقة أبيه من قبل . أما من الجهة النصرانية فقد اتفق مع أسقف برشلونة على وضع الكنائس والبيع في إمارته تحت رعاية هذا الأسقف . على أن يظل هؤلاء مقرين بالتبعية له . وذلك بأنه يقر رؤساءهم في مراكزهم ويدعون له على منابر وعظهم كما يفعل المسلمون ! وسمح لهم بذكر الأسقف بهذه الخطب ...بهذا المعنى قامت دويلة دينية نصرانية ضمن الإمارة الإسلامية لإقبال الدولة . ولم يجد في ذلك شيئاً . ووجد بعضهم في سياسته هذه نوعاً من تأثير تربيته المسيحية أيام أسره . ومبالغة في التسامح وقد يكون ذلك ولكنا لو نظرنا إليها بعيون عصره لما وجدنا فيها كبير خرق للجو العام . فنحن في أواسط عصر الطوائف وكثير من أمرائه كانوا يهادنون ويستنجدون ويحاربون أحياناً أبناء دينهم في جانب الفرنجة من قشتاليين وأراغونيين ونباريين ...هذا إلى أن هذه السياسة المتسامحة كانت شكلاً من التقرب لملوك برشلونة ليكونوا سنداً له ضد بني هود المسلمين الطامعين في بعض بلاده ...أما قيم الدين والإباء والعصبية فلا نطلبها عند هذا الأمير التاجر وهو الصقلبي القديم وتربية البلاط الألماني .

لكن سياسة علي المسالمة لم تجده نفعاً فقد احتل الموحدون في الجنوب

بلدة بياسة منه واحتل بنو هود دويلة طرطوشة التابعة له . وفي سنة ٤٦٧ جاء دوره هو نفسه ودور دانية وتم احتلالها وبشكل لم يكن متوقعاً أبداً . فقد توجه جاره ابن هود نحوهما مهدداً ليتنازل له علي عن بعض المعاقل فأعطاه وأمر بإخلائها . لكن بعض من كانوا حول علي بن مجاهد زينوا له الغدر به وهو في طريق العودة فأصدر علي أمره من جديد لأمرائه بالتحصن في معاقلهم دون تسليمها . فعاد ابن هود إلى دانية مرة أخرى !...

وأرسل علي إليه ابنه الملقب ــ ويا للمفارقة ــ بمعز الدولة فسمع من ابن هود تهديدات شديدة بأنه : سينال ما يريد « ولن يريم الفرصة حتى يسهل مرامها وتخلى بين يديه زمامها » فظنه المعز لغبائه أنه يريد دانية نفسها . فسأله :

ــ إذن فما مصيرنا نحن ومصير عائلتنا ؟

وتنبه وزير ابن هود إلى الكلمة وما تعني وغمز على يد صاحبه كي يستغل هذه الفرصة ما دام أصحاب البلد على استعداد لتسليم بلدهم . فتم له ما أراد . وخرج إقبال الدولة وابنه معز الدولة من دانية بمال كثير ولكن لا إمارة ولا حكم ...وأخذها ابن هود دون ضربة سيف !...

وما جاء بالمجان ذهب بالمجان !

على أنه يحسب لأمرائه هذه الدولة الساحلية منذ عهد مجاهد العامري حتى انهيارها الصامت ثلاثة أمور :

١ ــ الرفاه المادي والأرباح التي جناها أمراؤها ومكنتهم من الاتفاق عن سعة بسبب غنى الأرض الزراعية والنشاط التجاري الواسع واحتكارهم بعض الواردات المربحة كالخيول . وكان الطلب عليها شديداً في تلك الفترة فسجلوا منها ما في إمارتهم منها عند أصحابها فلا تكاد الرمكة (الفرس) تنتج مهراً حتى يكتب على صاحبه بأوصافه ويلزم بتربيته إلى أن يصلح للركوب ويعطي عند ذلك خمسة دنانير فقط ثمناً له لا يزاد عليهما درهم ولقد قطع رجل أذن مهره ليشوهه فقطعوا أذنه !

٢ ــ تشجيع الأمراء للحياة الفكرية فقد وجد في بلاط مجاهد ابن الصيرفي أحد كبار القراء ووجد العديد من الشعراء وابن زهر الإشبيلي الطبيب وابن سيده اللغوي وغيرهم .

٣ ــ التعصب الشعوبي ضد العرب وقد ألف أحد الفتيان واسمه حبيب كتاباً سماه الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة وكتب ابن غرسية الفتى الآخر رسالة في تفضيل العجم على العرب أثارت في الناس أعداداً من الردود .

ترى هل أحسنت هذه الدولة للناس بقدر ما أساءت ؟

البرتغال ...دولة قامت بالغدر والمصادفة

البرتغال اليوم مملكة . وكانت إلى قرون خلت مملكة استعمارية تحكم البرازيل كما تحكم (غوا) في الهند . وأقساماً من إفريقية الغربية وقد خنقت التجارة العالمية عبر البلاد العربية فنحن نعاني عقابيل ذلك إلى اليوم فهل تعلم أنها قامت بالمصـادفة البحتة وبشحاذة القوى من غيرها ! أيام ميل الشراع بالأندلس وتفرق شملها ؟

الأذفونش (الفونسو السادس) ملك قشتالة والذي سحقه المرابطون في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ كانت له ابنة غير شرعية تدعى تيريزا تزوجت من هنزي ابن عم كونت بورغونديا ووهبها قطعة من غرب إسبانيا ما بين أواسط غاليسيا حتى نهر التاجه . وورث ابنهما انريكه حكم هذه الاقطاعية الواسعة وحارب من أجلها ابن خالته ملك ليون ! ولكي يؤكد استقلاليته لم يجد إلا أن يعلن تبعيته الاقطاعية للسدة البابوية ! فلم يعد أحد يجرؤ على المساس به . وكانت هذه هي نواة مملكة البرتغال .

كانت أراضي أنريكـه كلها شريطاً غير عريض من الأرض يطل على المحيط الأطلسي . وفي تلك الفترة كانت الحملات الصليبية قد وصلت إلى بلاد الشـام وانتصرت فيها واحتلت الشواطئ ومصبات التجارة . وكان هذا كافياً ليثير شهوات الطمع لدى سكان شمال أوروبا ولا سيا وأن الثواب الديني الذي أعلنـه البابا يرافق هذه الشهوات ! الحرب في المشرق كان جنات لمن يصل وينتصر وجنات من مثلها لمن يموت ! ولما كان الطريق البري عبر أوروبا

ثم الأناضول مخوفاً متعباً كانت كتل النجدات والمتطوعين من شمال أوروبا تسلك طريق البحر . تلف حول القارة وتعبر جبل طارق إلى المشرق ...

وكان صاحب البرتغال على الطريق يستقبل ويودع . وهكذا أعانه موقع بلاده وفترة حكمه على استغلال هذه الجموع الصليبية وهي في الطريق . الألمان . الإنكليز . الفلمنك . الداتمارك سكان غرب فرنسا كانوا يتخذون من بلاده محطة أخيرة قبل أن يوغلوا في البحر المتوسط وشواطئه الجنوبية كلها عربية إسلامية . ولم يكن صعباً عليه إقناع هؤلاء العابرين بالثواب الديني الناجم عن قتالهم للمسلمين بالغرب فهم أنفسهم في الشرق . والرجل يتبع في إقطاعه البابوية يضاف إلى ذلك أنه يعدهم بالغنائم التي سوف تساعدهم في توفير تكاليف الطريق وتزيد ...

وهكذا كان هذا الأمير يستغل الصليبيين العابرين به . بدأ باحتلال أول المدن الأندلسية شنترين بالخدعة أواسط سنة ٥٤١ / ١١٤٧ . كانت بينه وبين حاكمها المسلم هدنة . ولكنه قرر الغدر فأحضر سلالم في الليل بعلو الأسوار وخبأها مع المقاتلين في الحقول المجاورة . وفي الصباح الباكر والحراس نيام وراء الأسوار أنفذ بعض جنده إلى نقطة ضعيفة الحراسة في السور فصعدوا السلالم وتوالى الجنود الآخرون من الأبواب فسقطت المدينة وذبح جميع سكانها .

في العام نفسه وردت حملة صليبية تحملها ١٦٤ سفينة من الألمان والأنكليز والفلمنك في طريقهم إلى فلسطين وحين توقفوا عند بلدة سانت ياقب في الشمال الإسباني فاوضهم أمير البرتغال واستطاع الاتفاق معهم على مهاجمة أشبونة (وهي العاصمة الحالية لشبونة) . وقاومت المدينة الهجوم وآلات الحرب سبعة أسابيع ثم سقطت بعد أن فقدت مخزون أغذيتها ومصادر شربها التي قطعت عنها .

كانت هذه هي مرحلة التوسع الأولى لهذه الإقطاعية التي اتخذ صاحبها

لقب الملك . المرحلة الثانية كانت بعد نيف وأربعين سنة . ملك البرتغال يومذاك كان اسمه سانشو . كان يرغب في التوسع في وقت كانت فيه دولة الموحدين التي تتبعها الاندلس في أزمات داخلية صعبة كما كانت أوضاع الأندلس في تدهور خطير وبخاصة في جهة الغرب . فصمم سانشو على احتلال غرب إسبانيا كله حتى أقصى الجنوب ومدينة شلب . واستغل مرور الأساطيل الأوروبية ببلاده ذاهبة إلى الشرق بعد أن سمعت بسقوط القدس في يدي صلاح الدين واستثارة البابا وأسقف القدس للناس والمتطوعة . وقد ألجأت العواصف الأسطول الأول وفيه فلمنك وألمان إلى ميناء لشبونة فاتفق الملك معهم على غزو شلب في أقصى الزاوية الجنوبية الغربية من الأندلس وأقنعهم بأنها كهف البحارة المسلمين الذين يهاجمون الأساطيل المسيحية . ونزلت الحملة البر سنة ٥٨٥ واحتلت حصناً يبعد ستة عشر كيلو متراً عن المدينة وكانت الحصيلة ذبح ستة آلاف شخص كانوا يسكنونه !

تبع ذلك حملة صليبية أخرى من الأنكليز والألمان والفلمنك . جمعهم ملك البرتغال مع قواه حول مدينة شلب فحاصروها قرابة شهر في البر والبحر . وأفلحوا في قطع المياه عنها . وحين عرضت الاستسلام بالأمان رفض ذلك جند الفلمنك . وأصروا على ذبح السكان . ثم تدخل سانشو وهو يحسب حساباً لجيوش الموحدين فحل المسألة بأن قبل ضمان سلامتهم إذا خرجوا من المدينة بملابسهم ! وأرضى الفلمنكيين بإعطاء كل الغنائم للبحارة الصليبيين الذين شاركوا بالهجوم . أما سانشو ففاز بالمدينة ...

وسمع الخليفة المنصور الموحدي بالحكاية . وكان قد تفرغ من المشاغل الداخلية فعبر البحر إلى الأندلس ووجه حملة برية بحرية لاستخلاص شلب فلم تفلح . لذا توجه في العام التالي سنة ٥٨٧ / ١١٩١ بنفسه على رأس الجيش وحاصرها في البر ونصب عليها آلات الحرب التي كان بينها أربعة عشر منجنيقاً . وحين وصل الأسطول الموحدي فحاصرها بحراً لم يكن لها إلا أن

تستسلم . وفتحت عنوة وأسر المنصور من فيها . ثم عاد فسحق الجيش القشتالي في معركة الأرك سنة ٥٩١ .

على أن البرتغاليين هاجموا بعد ذلك مدينة باجه شمال شلب وهدموها وأحرقوها . وحين عاد إليها من سكانها حوالي المائتين وحاولوا بتشجيع الموحدين وعونهم إعادة عمرانها عاد البرتغاليون عليهم بهجوم ثان بعد ثلاث سنوات فخرجوا منها بأولادهم وعيالهم وتفرقت جميع أموالهم وفروا على وجوههم بين المدن الأخرى ...

أما شلب فعاد البرتغاليون إليها بعد لأي حين سقطت معظم مدن الأندلس بين مملكة قشتالة أواسط القرن السابع / ١٣ م ...

ترى لولا المصادفات التي جعلت ملوك البرتغال يصطادون الأساطيل الصليبية من البحر ويستغلونها فهل كانت توجد هذه المملكة ؟ وهل كان لها في التاريخ تاريخ ؟

معركة الأرك

أبو يوسف يعقوب المنصور سلطان الموحدين في المغرب ما بين سنتي ٥٨٠ ـــ ٥٩٥ كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي . وكانت الأندلس بين ممتلكاته يومذاك وهو صاحب معركة الأرك سنة ٥٩١ المعادلة لحطين . كرّس هذا السلطان جهوده للأندلس وفي نفسه ذكرى أبيه الذي جرح ومات إثر معركة شنترين قبل سنوات ...

القشتاليون الإسبان كانوا قد تمركزوا في حصون إسبانيا الوسطى وفي مدنها شمال حوض نهر الوادي الكبير مهددين مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وإشبيلية وجيان . ولذلك أعد السلطان حملة كبرى في المغرب ، عبرت بالمراكب تهيج الموج إلى جنوب الأندلس أوائل الصيف من سنة ٥٩١ واتجه بكتلة الجيش عابراً بإشبيلية وقرطبة نحو الشمال وتمركز في بسائط شلبترة (سالفا تييرا) عند قلعة رباح .

وما كان خبر هذا العبور الضخم ليخفي فقد ركض عبر الدروب الإسبانية إلى كل مكان . وكان أكثر الجميع قلقاً منه الفونس (الأذفونش) الثامن ملك قشتالة الذي بعث يطلب النجدات رغم أنه كان على ما يبدو ينتظر مثل هذه الحملة وقد استعد لها . فقد انحدر بجيوشه حتى حصن الأرك القريب من قلعة رباح وهو آخر حدود قشتالة باتجاه قرطبة . كان يريد الحيلولة بين جيش الموحدين وبين الإغارة على بلاده . ويبدو من نزوله في هذا الموقع أنه كان واثقاً من النصر أيضاً ...لأن تقدمه إليه كان نوعاً من التحدي . وقد كان أهل قشتالة يشاركونه هذا الشعور بالثقة ويعتبرون نصره أمراً مفروغاً منه . بل

كان معه جماعات من تجار اليهود وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا لذلك الأموال ...

وقف الجيش القشتالي بألبسته الحربية الثقيلة يوماً كاملاً في حرارة الشمس القاسية فيما كان السلطان يعقوب يناقش في مجلس حربي خطة المعركة . وأخذ أخيراً برأي عبد الله بن صناديد قائد الأندلسيين الذي قال بتقسيم الجيش قسمين أحدهما للمواجهة برفع العلم الأبيض ويقوده أحد ثقات السلطان ليتوهم الإسبان أنه السلطان بنفسه ويبقى القسم الثاني كامناً من بعيد ليحط على الجيش القشتالي عند احتدام المعركة .

بدأ الموحدون الهجوم في اليوم التالي . وتسرع الفونسو الثامن بالحرب اعتداداً بنفسه وبجيشه فيما كان حلفاؤه ما يزالون على بعد مئات الكيلومترات منه . وما هي إلا معركة يوم واحد من الصبح إلى حلول الليل حتى كان جيشه قد تمزق . وقد استتر هو نفسه بالظلام ليهرب . والروايات الإسبانية تجعل المعركة تنتهي عند الظهيرة إذ أدرك القشتاليون فداحة خسائرهم ويئسوا من إمكانية الصمود ، فجهدوا حتى سحبوا ملكهم من المعمعة وهربوا به ...وكان التجار اليهود أول الهاربين بأموالهم وأنفسهم !

لاحق الجيش الموحدي الفلول . وأحاط بحصن الأرك ظناً منه بأن الفونسو هرب إليه لكنهم لم يجدوه فيه فاكتفوا بأسر من وجدوا واغتنام ما فيه ثم استولوا على خمسة حصون مجاورة أخلاها حماتها وفروا ...

كانت خسائر القشتاليين كبيرة جداً بدليل ما يرد في التواريخ الإسبانية من أسماء كثيرة لأساقفة ونبلاء لقوا حتفهم في هذه المعركة . ويبالغ المؤرخون في الأرقام الإحصائية للقتلى ؟ وأقلها ما يذكرونه من أنهم ثلاثون ألف قتيل مع خمسة آلاف في حصن الأرك مقابل خمسمائة من جيش المسلمين ! وبعض الأرقام تصل إلى ١٤٦ ألف قشتالي و ٢٠ ألف مسلم و ١٣ ألف أسير عدا ٢٤ ألفاً من حصن الأرك ! ويقولون إن السلطان أطلق الأسرى بعد أن

ملكهم لتكون له بذلك المنة عليهم واليد العليا فعز فعله هذا على جميع الموحدين وعلى المسلمين كافة وحسبت له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك !...

أما الغنائم فلعبت فيها المغالبات أكثر فأكثر . قالوا : إنهم غنموا من الخيام ١٥٠ ألف خيمة ومن الخيل ثمانين ألفاً ومن البغال مائة ألف ومن الحمير ٤٠٠ ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل عندهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى . وبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم .

ومن الطريف ما تضيفه المصادر من أن الفونس ملك النصارى نجا إلى طليطلة في أسوأ حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وآلى أن لا ينام على فراش ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ الثأر وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد . فعاد السلطان يعقوب فساق خلفه إلى طليطلة وحاصره ورمى عليه بالمجانيق ولم يبق إلا فتحها ، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه يبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن فرق لهن ومنَّ عليهن بها ووهب لهنَّ من الأموال والجواهر والحلي ما جلَّ . وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة وعاد إلى قرطبة فأقام شهراً يقسم الغنائم !...

والتفسير المجمع عليه لهذا النصر هو الاستعداد الجيد للموحدين عدداً وقوة . واحتواء جيشهم على عناصر من التجمعات القبلية المغربية كلها وقد أضيفت إليه عناصر عربية من قبائل سليم وهلال ومن الغز الأتراك السلاجقة أيضاً ...يقابل ذلك تسرع الفونسو قبل وصول النجدات . يضاف إلى ذلك خطة الموحدين الحربية . وعمل سلاح الرماة بطريقة لا يعرفها المغرب . وهي طريقة الغز الأتراك . يطلقونها بغزارة تتساقط كالمطر على مواقع الأعداء أكدت ذلك أقوال الإسبان من أنها كانت لا تعد ولا تحصى تتطاير في الهواء في كل اتجاه كالنحل . وتعمي الأبصار وتوقع الجراح الكثيرة كأنها رسل الموت !
إن الله لا يحب كل جبار عنيد ...

صاعد البغدادي

إذا كانت الهجرة في الأندلس إلى المشرق دعوة دينية لحج البيت ورغبة علمية في التتلمذ والتزود من علماء المشرق وكانت كثيرة . فقد أتى حين من الدهر كانت الهجرة فيه من المشرق إلى الأندلس أمنية يحلم بها كثير من علماء المشرق وقد حققها الأقلون فالشقة شديدة البعد والمخاطر في البر والبحر على السواء ومع ذلك فقد قام بها عدد من البارزين كزرياب المغني وأبي علي القالي وموسى الرازي وأبو الفتوح الجرجاني ومن هؤلاء الذين اجتذبهم السحر الأندلسي : صاعد بن محمد الذي عرف بالبغدادي وعرف أيضاً باللغوي .

وصل صاعد إلى الأندلس سنة ٣٨٠ / ٩٩٠ م . في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر . وسرعان ما استطاع أن يتصل بحاشيته ثم به باعتباره من علماء المشرق . وكان لهؤلاء وزنهم الكبير في الأندلس وقد حظي بسرعة بعطف المنصور وإعجابه لا بسبب تضلعه في علوم اللغة والتاريخ فحسب ولكن أيضاً بسبب ذكائه اللماح وطلاوة حديثه وطيب معاشرته وبديع جوابه وحضور بديهته وبراعته في ارتجال الشعر . وقد أكمل المؤرخون هذا الوصف قائلين إنه كان « ممتعاً محسناً للسؤال ، حاذقاً في استخراج الأموال » .

وكان هذا هو الواقع . فقد كان يلتمس العيش الرخي الحسن ونوال الأعطيات ! وإذا كان هذا همّه الأول فقد كان له هم ثان يقلقه هو منافسة الشهرة التي اشتهرها أبو علي القالي هناك فقد كان يغار منه ولنقل يحسده على المكانة التي حازها في الأوساط الأدبية ويشتهي أن يغطي عليها ببراعته . ولكنه كان عريض الادعاء بارع الكذب في هذا المجال ولا يتحرج من شيء في هذا

السبيل . حتى لقد زعم أنه قد قرأ جميع الكتب المعروفة . وتحكي المراجع عن جرأته في هذه الناحية أن نفراً من خصوم صاعد أرادوا إظهار كذبه وفضح دعواه وزيفه فسألوا الخليفة المنصور في تجليد كراريس من الورق الأبيض تزال جدتها حتى توهم القدم . ووضع على الكتاب عنوان كتاب النكت . وجعلوا المؤلف أبا الغوث الصنعاني ولا وجود لهذا الرجل ولا لكتابه . فلما عرض الكتاب على صاعد ترامى عليه حين رآه وجعل يقبله وقال : إي والله ! قرأته في البلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ...فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال : إن كنت قرأته كما تزعم فاذكر لنا شيئاً مما فيه وعلام يحتوي ؟ فقال : وأبيك بَعُد عهدي به ولا أحفظ الآن منه شيئاً . ولكنه يحتوي على لغة منثوره لا يشوبها شعر ولا خبر . فقال له المنصور : أبعد الله مثلك فما رأيت أكذب منك . وأمر بإخراجه ...لكن غضبة الحاجب ابن أبي عامر كانت عابرة وقد عاد صاعد بحديثه المعسول فاتخذ مكانه في مجلس المنصور كأنما لم تكن الحكاية فقد كان أحد كبار شعراء البلاط وضليعاً في العربية وجليس سمر !

وقد تصدى صاعد لتأليف كتاب « يفوق الأمالي » لأبي علي القالي . هكذا قال للناس وزعم للحاجب المنصور أن يملي على كتَّاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا يورد فيه خبراً مما أورده أبو علي . فأذن له المنصور بذلك . وجلس صاعد بجامع مدينة الزاهرة . مدينة ابن أبي عامر ، يملي كتابه الذي جعل عنوانه : الفصوص . أي قطع الجواهر . فلما أكمله وقدمه للمنصور تتبعه أدباء ذلك الوقت فلم يجدوا فيه كلمة صحيحة ولا ثبت منه خبر لديهم فأمر المنصور أن يقذف الكتاب في نهر قرطبة . وقذف وقال أحد الشعراء :

قد غاص في الماء كتاب الفصوص   وهكــذا كل ثقيــل يغـوص !

فأجابه صاعد :

عـــاد إلى معـــدنـــه . إنمـــا   توجد في قعر البحـار الفصوص !

ولا شك أن الرجل مع دعواه كان لديه ثروة لغوية وتاريخية حسنة وبديهية جميلة المأخذ تعينه في اللحظات الحاسمة . رأى مرة في يد المنصور ابن أبي عامر وردة في غير موسمها لم يستتم تفتح ورقها فقال مرتجلاً :

اتتـك أبـا عـامـرٍ وردة تـذكرك المسـك أنفـاسـها

كعـذراء أبصرهـا مبـصر فغـطت بـأكمامهـا راسـهـا !

وقصص ارتجاله كثيرة عديدة فقد كان النظم سهلاً طليقاً على لسانه .

وقد أهدى ذات يوم إلى المنصور أيلاً (أي غزالاً) في قيده وكتب : مولاي :

عبـد جذبت بضبعـه ورفعت من مقـداره أهـدي إليـك بـأيـل

سميتـه غـرسيـة وبعثتـه في حبـلة ليتـاح فيـه تفـاؤلي !

فقضي الله في سابق علمه أن غارسيه بن شانجة صاحب مملكة نافاره (نبرة) من ملوك الإسبان وكان أمنع من النجم أُسِر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيل وسماه متفائلاً غرسية . فزاد حب المنصور لصاعد بسبب هذا التوافق الغريب .

ولم يكن صاعد ليدع فرحته تفلت منه إلا أظهر للمنصور شكره . وذات يوم خطرت لصاعد خاطرة بارعة شيطانية . بعث إلى الحاجب المنصور غلاماً له أسود يسمى كافوراً وقد ألبسه قميصاً كالمرقعة حاكه من خرق الأكياس والصرر التي كان يقبض فيها صلات المنصور فلما مثل بين يديه عجب من فعل صاعد بغلامه وسأله في ذلك ، فقال : يا مولانا هنالك الفائدة . اعلم يا مولاي أنك وهبت لي إلى اليوم ملء جلد كافور مالاً . فتهلل المنصور وقال : لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معاني الشكر ...وأمر له بمال واسع وكسوة وكسا كافوراً أحسن كسوة !

ومات المنصور سنة ٣٩٢ / ١٠٠٢ وظل صاعد خمساً وعشرين سنة بعده يعيش على ماله ويتأسف عليه !

ألا يحق له ذلك ؟

معركة العقاب

كانت السيارة تسير بنا في الدروب الصاعدة في الجبال من مدريد لتهبط بنا بعد ذلك نحو الأندلس . والدنيا ربيع ساحر يحلو به الصمت والحلم . وانقطعت الخضرة والظلال المخضلة لنصعد مناطق صخرية جافة تؤنسها بين فترة وأخرى بعض الأشجار المتفردة . وفجأة أمسك مرافق الرحلة بالميكروفون وقال :

ــ هنا منطقة معركة الكلاب ! هنا شعاب جبال قرطبة سييراامورينا ...

وتنبهت كل مشاعري كأنما مسني تيار كهربائي . ونظرت حولي في فزع قلت : هنا إذن . هنا دفنت الأندلس ؟

لم يسمعني أحد فقد كان هذا هاتفاً ضج في داخلي وحدي . كنت العربي الوحيد في السيارة ، وتلفت حولي . لم يلق أحد بالاً لكلمة الميكروفون . أما أنا فأغمضت عيني ورحت أستعرض الصور في خاطري ...عن معركة العقاب التي يسميها الإسبان لاس نافاس دي تولوسا . أو معركة الكلاب ...

في يوم من أيام سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م . كانت هذه القمم الموحشة والصخور المردة ، كأسنان التنين ملأى تغلي بالمحاربين . على الطرف الجنوبي منها قومي وأهلي وعلى الطرف الآخر جموع شتى من الفرنجة والإسبان والفرنسيين والإيطاليين ومن مشردي الفلمنك والجرمن من كل ملة ...تصورتها أشباحاً وسواداً بغتت لي في الجبال من وراء الصخور والرماح

بينها غابة ولمع السيوف يتألق بالشمس فهو بروق تختفي وتظهر على المدى ...

الخليفة السلطان محمد الناصر الموحدي هو الذي كان هناك في هذه القمة أو عند تلك يراقب جيشاً يقولون إنه من ٦٠٠ ألف مقاتل ...لعلهم يبالغون . فليست قيادة مثل هذا العدد في مناطق جبال قرطبة المشرفة على الوادي الكبير بالأمر الهين . ولكنه على أي حال قد يكون أكبر جيش شهدته الأندلس حتى ذلك العهد .

كان الخليفة الناصر قد فرغ من مشاكل المغربين الأدنى والأوسط بعد أن شغل بهما في أول شبابه وحكمه . ثم انصرف كأبيه من قبل وجده إلى جهاد الممالك النصرانية في شمال الأندلس . كان ذلك قد أصبح عادة وهماً دائماً . أليس يمنح الشرعية ويرضى في الوقت نفسه الضمير الديني في الجهاد ؟ وكانت حدود الأندلس الإسلامية قد تقلصت وصارت في الوسط تجاه قشتالة على الخط الدفاعي الثالث والأخير وهي جبال قرطبة المشرفة على نهر الوادي الكبير على الرغم من كل الجهود الموحدية التي كانت في معظمها ـــ على أي حال ـــ دفاعية لا هجومية . أما في الغرب فتقلصت كثيراً إلى ما دون ذلك وأما في الشرق فكانت سلمية لم ينقص منها إلا منطقة سرقسطة . التي سقطت سنة ٥١٢هـ /١١١٨م ...

ولم تكن حملة الناصر هذه ٦٠٩هـ /١٢١٢م بأول حملاته في الأندلس فقد قاد حملة قبلها ضد مملكة آراغون وأوقع بجيشها البري وأسطولها البحري أعظم الفجيعة . غير أن الظروف العامة كانت قد تغيرت ... كان الجانب القشتالي قد استوعب تماماً درس موقعة الأرك السابقة قبل حوالي عشرين سنة ، لذلك ركز ملوك قشتالة على حشد طاقات ملوك إسبانية جميعاً وعلى كسب مشاركة القوى الأوروبية الممكنة واستثمرت فترة السلم التي سبقت في ذلك . فقد قام رودريغو خيمنز دي رادا رئيس أساقفة طليطلة بجولة في فرنسا وإيطاليا حصل خلالها من البابا اينوسنت الثالث على الدعم المعنوي المتمثل

بإعلانه سنة ٦٠٨ / ١٢١١ أن محاربة المسلمين في الأندلس حرب صليبية بكل ما يترتب على ذلك من ثواب أخروي لمن يشارك بها . وإضافة لذلك أصدر البابا كتباً للأساقفة في جنوب فرنسا تأمرهم بحث الناس على المشاركة فيها . وكتب إلى أساقفة إسبانيا كي يقوموا بإقناع ملوكهم بتوحيد الكلمة في مواجهة المسلمين . وأعلنت البابوية أن التعاقد مع ملوك المسلمين إثم محرم .

وكانت في نفس البابا أشياء كثيرة من فشل الصليبيات في المشرق ولا سيا بعد أن حولتها البندقية لمصلحتها ، في الحملة الرابعة واحتلت القسطنطنية بدل القدس ! واجتمع لملك قشتالة في النتيجة جيوش جرارة من متطوعي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وقام تحالف صليبي يضم جيش الأراغوان ونافار بملكيهما وقوى البرتغال مع فرقة من الداوية صليبي المشرق وعلى رأس الجميع ملك قشتالة ومعه بعض زعماء الصليبيين الفرنجة . كانت هذه الجبهة من العرض بحيث اضطرت الملك الناصر الموحدي أن يجمع لها كل قواه الممكنة في المغرب والأندلس ويزحف إلى الشمال وإلى ما يقرب من موقع معركة الأرك السابقة !

بدأت المعركة بمناوشات أولى طويلة إذ حاصر الناصر حصن شلبترة ثمانية أشهر وكلفه الكثير من الجهد والمال حتى سقط في حين احتل القشتاليون قلعة رباح . ومنح الملك القشتالي حاميتها الأمان مما أغضب الفرنسيين فانفصلوا عنه لأنهم كانوا يرغبون في أخذ القلعة عنوة وذبح الحامية . وتحصن الناصر بعد ذلك في شعاب الجبال الطويلة استعداداً للمعركة الفاصلة (جبال سييرامورينا) تاركاً للأسبان زمام المبادهة . وكانت حشودهم قد تكاملت حتى ممن كانوا أعداء لملك قشتالة كملك نافارا وكونت برشلونة .

وفي منتصف تموز ، في الحرارة اللاهبة بدأ هجوم الإسبان ولم يسفر الهجوم عن شيء لأن الجيش الموحدي تشبث بالشعاب والصخور المسنونة واضعاً الحراسات على جميع الطرق المؤدية إلى مكان نزوله ...ومع ذلك جاءته

المفاجأة من حيث لا يحتسب . فقد تسلل قسم من الجيش الإسباني عبر ممر غير محروس في شعاب الجبال دلهم عليه أحد الرعاة وأعملوا السيف في الليل بجيش الموحدين !

وبدأ التقاعس والهرب الذي تحول بسرعة إلى فزع رهيب . الأندلسيون تراجعوا لأن في أنفسهم أشياء من إعدام زعمائهم نتيجة نصائح ابن المثني المدبر لشؤون الناصر . والمغاربة لم ينسوا في تلك اللحظات الحاسمة أن عدداً من شيوخهم أعدم قبل المعركة بتهمة الفساد واختلاس الأموال ففروا من الميدان . ودب الذعر في الجيش كله فإذا الأرجل تسابق الخيول هرباً والخيام تقوض وتحرق والأشلاء تنتثر للطير والذبح يأخذ مداه . ويشرب الصخر ما لم يشرب من قبل ولا من بعد من الدماء ! واضطر الناصر محمد أن يلوذ بالفرار على فرس أحد من الأعراب مع حاشيته التي أعجزها الثبات ...

وكانت هذه هي الكارثة التي ذهبت بالأندلس . لم يبق لدى الخليفة الموحدي جيش يحارب به فانسحب للمغرب . والكثيرون يبالغون فيذكرون أنه خسر ستمائة ألف لم ينج منهم سوى ألف واحد . ولم تكن هذه الضحايا هي الخسارة الوحيدة فإن خط الدفاع الثالث والأخير في الأندلس قد سقطو وسقطت إثره بلداً بعد بلد قرطبة وإشبيلية وجيان ولورقة وغيرها في فترات متعاقبة ولم يبق للمسلمين سوى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأندلس التي تتمركز حول غرناطة وجبال شلير ...

وانكفأ المغاربة إلى المغرب فلم يعودوا بعد ذلك إلى الأندلس إلا لماماً أو من بعيد !

وكانت معركة العقاب هذه هي معركة العِقاب على جميع ما فرط من أخطاء الأندلس !

الموشحات والزجل

هل تعرف من صاحب الموشح الذي نعرفه جميعاً وننشده طروبين لإيقاعه :

جادك الغيث إذا الغيث همـا يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس ؟

إنه لسان الدين ابن الخطيب ، الوزير الغرناطي ، والسياسي اللامع والكاتب البليغ والشاعر الذي جنت عليه محاسنه العديدة وأوردته الهلاك . والورد قد يجني عليه جماله !

وإذا كان الشعر سمة من سمات الأندلس لا يكاد تجد من فقيه أو طبيب أو أمير أو فلكي أو فيلسوف إلا ويقوله . وإذا كان معظم تراجم الرجال هناك ذوي قصائد شعرية تقل وتكثر . فلست تدري السبب في هذا الفيض الشعري الغزير في الأندلسيين . ولقد ضاقت بهم القوافي أو ضاقوا بها فخرجوا عن المألوف المشرقي من القوافي المقعقعة بعضها وراء بعض إلى طريقة فن التعبير الشعري أكثر حرية . وأقرب مواتاة للذوق الفني . فكان من هذا الخروج ذلك المطرب المرقص المسمى بالموشحات .

قبل الحديث عنها يجب أن تقر في أذهاننا معلومة أساسية فلا نتصور أن الأندلسيين كانوا ـــ كما في الكتب ـــ يتحدثون باللغة العربية الفصيحة أو يتقعرون في الكلام . عدد العرب الذين نزلوا الجزيرة لم يكن من الكثرة بحيث يفرض اللغة العربية السليمة . الذي حدث هو العكس فرضت لغة التعامل مع الإسبان نفسها على الألسنة فإذا الأمراء والسوقة على السواء يتحدثون ابتداء من

الجيـل الثـالث بعد الفتح بلهجـة هي بين العربيـة العامية والإسبانية عرفت بالرومانس !

وتسلل الذوق الشعري إلى هذه اللهجة التي سربت في البيت والسوق وفي أوساط الناس فنشأ من ذلك طراز شعري خليط لا يمتد نَفَسه الشعري في القافية إلى اكثر من بيتين ولا تتمدد اللغة الفصيحة على جملة ولكن تركض الكلمات الخليطة العامية . ودندن الناس بهذا « الشعر » الذي ابتكروه وغنوا به وأحبوه وإن لم يعترف بهم أهل الأدب ...

وبالتدريج ظهر في مبتكري هذا الشعر نوابغ بزوا غيرهم واستأثروا بحب النـاس وإعجـابهم . ظهر مقدم بن معـافى القـبري الضرير الذي عاش بين سنتي ٢٢٥ ــ و ٢٩٩ / ٨٤٠ ــ ٩١٢ . والذي نظـم الموشحات وأبدع فيها . فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته . وتضيف المصادر أنها « أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والغناء وتشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب ... » . وأخذ هذه الأوزان الأدباء فنظموا عليها ووجدوها قريبة سهلة . ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفـريـد ومكـرم بن سـعيـد ويـوسف بن هـارون الرمـادي وابن عبـادة القزاز ...وانتشر هذا الفن الذي عرف بالموشح فنظم على منواله الكثيرون . نظماً هو بيتان بعد بيتين بقواف مختلفة تنتهي الفقرة بقافية تتكرر في التي تليها وهكذا ...وصار الموشح فناً من فنون الشعر ! ووسيلة للطرب والغناء . ومن ذا الذي لا يطرب إذا سمع :

ونـديـم هـمـت فـي غـرتـه ... وبشـرب الـراح مـن راحتـه
كـلـما استيقـظ مـن سكـرتـه ... جـذب الـزق إليـه واتـكـا
وسـقـانـي أربـعـاً فـي أربـع
مـا لعينـي عشيـت بالنظــر ... أنـكـرت بـعـدك ضـوء الـقـمـر

وإذا ماشئت فاسمع خبري عشيت عيناي من طول البكا
وبكى بعضي على بعضي معي

الموشح والزجل في واقع الأمر شعر واحد . إلا أن الموشح أكثر اعتماداً على اللغة العربية الواضحة من الزجل الذي كان يعتمد على السوقي الدارج من لغة الرومانس ، مع العربية المحكيّة . فكأن الموشح هو المهذب من الزجل وكأن الزجل هو الموشح العامي . وليس الفرق بينهما في شكل النظر ولا الأوزان ولكن في لغة التعبير .

وإذا اعترف أهل الأدب بالموشح كفن شعري وأحبوه نشيداً وغناء منذ القرن الثالث الهجري ، فقد تريثوا في قبول الزجل وإن كان الكثيرون يقولونه كأبي يوسف هارون الرمادي شاعر الخليفة المنصور وأبي عثمان بن سعيد المعروف بالبلينة (أي الحوت) وابن هانئ الشاعر ، وابن اللبانة الشاعر الآخر والأعمى التطيلي وابو بكر بن زهر الطبيب وكثيرون وكثيرون لكن أهل الأدب انتظروا فناناً بارعاً يقوله وجاء هذا الفنان بين القرنين الخامس والسادس وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن قزمان (الذي عاش في قرطبة ما بين سنتي ٤٦٠ و٥٥٤) أربعاً وتسعين سنة . عند ذلك اعترفوا للزجل الذي يقوله هذا الرجل بأنه شعر من الشعر ! كان لا يستعمل حركات الأعراب ويستثقلها في شعر هو للناس عامة وللغناء فاستخدم اللهجة العامة الدارجة التي تشوبها كلمات وجمل من الرومانس عجمية أهل الأندلس !

وشاع الزجل أكثر من شيوع الموشح ولا يحصون أولئك الذين كانوا ينظمونه في جميع أنحاء الأندلس . ونظمته حتى النساء . يقول أحد المؤرخين « وأما ما في الأندلس من الشعراء والوشاحين والزجالين فما لو قسم على بر العدوة ضاق بهم . والكل ينالون عليه من خير رؤسائهم ورفدهم » أو حتى في مملكة غرناطة أغرم الناس بهذا الفن الشعري وأقبل عليه حتى أهل المعرفة والعلم

كابن حيـان السخوي وابن زمرك الشـاعر ولسـان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين .

وحلت الموشحات والزجل محل القصـائد الفصيحة ـ رغم عدم نسيانها ـ في كثير من الأغراض فكانت للغزل ولوصف مغامرة غرامية وللمديح والهجاء والغناء في الشوق ولدندنة الجواري والمتسولين في الطرق وعابري السبيل وحلقات الموسيقى الشعبية الصاخبة ومجلات اللهـو والتسلية ...بل كان أيضاً لأصحاب المجون والنسوان والسكارى ولذلك حفلت أحياناً بما يخدش الحياء . ولا تصاغ الأزجال ليتغنى بها الانسان منفرداً وإنما ينشدها المنشد وحده تصاحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناي والدف والصاجات وربما تخللها الرقص ...وليست لغتها لغة الشعر المحتشم بل تتخللها أحياناً دعابات سوقية وعبارات مبتذلة وألفاظ من أحاديث المباذل ...

ومع مجيء عصر الشتات الأندلسي انتقل الموشح وانتقل الزجل إلى المشرق . وعلى الرغم من وجود نوع من الزجل هنا من قبل فقد أضيف طعم جديد إلى هذه الأنواع الشعرية هو سحر الأندلس !

ابـــن زيـــدون

قبيل نهاية القرن الرابع الهجري بسنوات معدودة ولد في قرطبة شاعر قيض له أن يعيش قسماً حسناً من القرن الخامس التالي . وبهذا كان شاهد عصر من أبشع عصور الأندلس وأكثرها اضطراباً سياسياً وتمزقاً في الفتن والولاء بدأ العصر بتدمير قرطبة العاصمة ولم ينته إلا بتسليم جانب كبير من أرض الأندلس للإسبان . هذا العصر هو عصر ملوك الطوائف . وأما الشاعر فهو أبو الوليد أحمد بن زيدون .

والرجل من أسرة مرموقة بارزة في الناس وقد تمتع بدراسة حسنة ثم بمكانة عالية في المجتمع القرطبي بفضل ما أنفق من عناية في تعليمه وما وهبه الله من ملكة شعرية طيبة جعله أهم شعراء عصره . والشعر فتنة الأندلسيين ونقطة ضعفهم . وكان ابن زيدون ما يزال في العشرين من العمرحين وضح أن القوافي تدين له والتعبير الشعري يجري على لسانه ...ويبدو أنه في فترة الاضطراب السياسي الذي سبق سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ أخذ ابن زيدون جانب الحكم الجمهوري الذي أقامته الأرستقراطية القرطبية فيها وعهدت به إلى أبي الحزم بن جَهْور القاضي . فكان ابن زيدون فيمن عملوا لهذه الدولة وفيها في مطلع شبابه ...

في تلك الأثناء اتصلت العلائق بين ابن زيدون وبين فتاة من البيت الأموي اسمها ولادة بنت المستكفي بالله حفيد الخليفة الناصر . وكانت برزة من النساء طلقة الفكر أديبة شاعرة فما إن مات أبوها حتى نزعت عن الحريم وخرجت إلى مجامع الأدباء والعلماء . وجمع الشعر بين الاثنين . فما تزال

كتب الأدب تجمع بينهما إلى اليوم كما تجمع بين قيس وليلى وكثير مع عزة وجميل مع بثينة ...

كانت ولادة فيما يذكر الرواة أحد الأقران في نساء زمانها حضور شاهد وحرارة أوابد وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر . لهذا كان مجلسها في قرطبة منتدى لأحرار المدينة . وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها . هذا إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب . وإن أوجدت ببعض شعرها وقلة لا مبالاتها بعض الأقاويل : وقيل إنها كتبت على أحد طرفي ثوبها .

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وعلى الطرف الآخر :

أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

يروي الراوي ذلك ويبرأ إلى الله من عهدته . ويضيف إنها كانت مشهورة بالصون والعفاف . ولعل قولها هذا من قبيل تبذل الشعراء فإنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون !

وتوثقت علاقات ابن زيدون بولادة فكتبت إليه مرة بعد أن ألح وألحف في أن تزوره :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتمَ للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر!

بيد أن السر ما لبث أن ذاع وعرف الناس أمره وعرفوا إلى ذلك أن ابن زيدون لم يكن وحيد الصلات مع ولادة ولكنه تعلق أيضاً بجارية لها سوداء . وأسرعوا إلى ولادة بالخبر فبدأ قلبها يتحول عن صاحبها ولقيت في ذلك الحين أبا عامر بن عبدوس وكان كلفاً بها يطمع في ودها وإن كان جاهلاً قليل الذكاء ، مغتراً بنفسه يغطي جهله العلمي بماله العريض حتى صار بفضل ماله

وزيراً لدى ابن جهور صاحب قرطبة يومذاك . واجتذب ولادة إلى جانبه . فثارت حفيظة ابن خلدون وجعل دأبه السخر من ابن عبدوس وكتب إليه خطاباً على لسان ولادة انتشر وتناقله الناس كقطعة أدبية جميلة لكنها مملوءة سخراًوإقذاعاً وفيه : أما بعد أيها المصاب بعقله المورط بجهله الأعمى عن شمس نهاره الساقط تساقط الذباب على الشراب . راسلتني مستهدياً صلتي وما قرعت دونه أنوف أشكالك .... » وامتعضت ولادة لهذا التدني في القول فانقلب حبها لابن زيدون كرهاً شديداً وجفاء ...وخسرها إلى الأبد !

أما ابن عبدوس الوزير فأسرها في نفسه ولم يزل يدبر لابن زيدون ويثير عليه خصومه حتى اتهم بتبديد أموال كان أؤتمن عليها وزج بابن زيدون في السجن !. وعبثاً كان يرسل رسائل الاستعطاف من محبسه إلى القاضي أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد ــ وهو صديقه ــ فلم يسعفه واحد منهما حتى يئس . وقال في نفسه : المرء يعجز لا محالة ولا استجيز أن أكون ثالث الأذلين العير والوتد وذكر أن الهرب من الظلم من سنن المسلمين . وهكذا دبر ابن زيدون حيلة أفلت فيها من السجن . ولكن أين يذهب ؟

قضى بعد هربه فترة من الزمن شريداً في أحواز قرطبة . وكان في خاطره استرضاء ولادة فما زالت أشواقه تلح عليه وبخاصة بعد أن هجرته . ثم أرسل إليها بالقصيدة التي يعتبرها بعضهم أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا ...

ولم تجبه ولادة أبداً . ثم شفع له صديقه أبو الوليد بن جهور عند أبيه حتى عفا عنه فعاد إلى قرطبة يقضي الوقت في مديح آل جهور وأعمالهم في منع الخمور وحسن الإدارة ويرثي موتاهم ...وغابت ولادة تماماً عن الصورة ولعلها عادت فانزوت عن الناس حتى ماتت في سن عالية ...

أما ابن زيدون فدخل في خدمة أبي الوليد بن جهور الذي ورث أباه في الحكم فأوسع عليه وأرسله سفيراً إلى أمير مالقة فأطال الثواء هناك وخف على قلب الأمير مما أغضب ابن جهور . فلما غادر رضي عنه وصرفه في السفارة إلى بعض أمراء الأندلس في بلنسية وبطليوس وإشبيلية وقابل في هذه المدينة المعتضـد كبـير أمراء الطوائف . فإذا به يصبح وزيراً عنده ! ولما مات أخذ المركز نفسه لدى ابنه المعتمد والمكانة ذاتها . وصار من خواصه ـــ والاثنان شاعران ـــ وسفر له عند الأمراء الآخرين ، رغم مشي السعايات وراءه والدس عليه . وحين تملك المعتمد قرطبة عاد ابن زيدون معه إلى بلده في موكبه ...

واتفق أن فتنة حدثت في إشبيلية نتيجة قتل أحد من المسلمين لرجل من اليهود وثار أهل ملته لذلك ، فأرسله المعتمد مع وفد لإصلاح الأمور مع أنه كان متوعكاً فتحدث الناس أنه أبعده عنه . وقد يكون ذلك صحيحاً لكن المنية جاءت لتنهي حسد الحاسدين والدساسين إذ توفي ابن زيدون غريباً في هذه المهمة في إشبيلية ...

حين بلغ الخبر ولادة التي أضحت عجوزاً مسحت دمعة عن خدها . وقالت : لقد مات !

ابـــن حـــزم

أبو محمد علي بن أحمد بن حزم واحد من أبرز وجوه الثقافة الأندلسية وأكثرها شأناً وقيمة وتأثيراً . عاصر الشاعر ابن زيدون تمام المعاصرة من عهد ملوك الطوائف ولكن شتان بين الرجلين فقد شارك ابن حزم في صنع تاريخ عصره بحياته السياسية العاصفة وكانت حياته رمزاً لأحوال الأندلس في عصره ونموذجاً لتقلباتها السريعة المؤلمة ...دخل ميدان السياسـة مغامراً وهو شاب وعانى ما عانى من أوصـــاب النفي والمؤامرات ثم خرج منها آخر الأمر عالماً لا يشق له غبار ورجلاً جدلياً ومفكراً عضب اللسان . وحين أحس الغربة عن أهله وعصره اعتزل الناس حتى مات في قرية نائية سنة ٤٥٤ هـ . بعد أن ترك تراثاً فكرياً ليس كمثله تراث ...

كان ابن حزم في التاسعة عشرة من العمر حين توفي والده فوجد نفسه فجأة وهو الميال إلى الفكر والأدب أحد زعماء حزب سياسي يضم البيوت المناصرة للأمويين المتمسكين بحقوقهم في العرش فقد كان أبوه كذلك رغم خدمته لآخر العامريين الحجاب ..وغامر ابن حزم في الجو السياسي العاصف وإذا بالنكبـة الأولى تصيبه على الفور مع أهله إذ أخرجوا من قرطبة بسبب ولائهم السيـاسـي ونهبت بعد خروجهم قصورهم وأملاكهم . الأرستقراطية القرطبية لم تحتمل أن يكون بينها مؤيدون لبني أمية . وتوجه ابن حزم إلى المرية يقيـم فيها منصرفاً إلى العمل السياسي إذ أقبل على تأييد الخليفة عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى فيما كان يسعى إليه من الخلافة . بمؤازرة مجموعة من أنصاره كان بينهم ابن حزم وجماعته . وقد سار مع المرتضى وجيشه يحارب بني

حمود الذين دعوا بالخلافة لأنفسهم ولكن هذا الجيش هزم في موقعة غرناطة سنة ٤٠٨ وقتل المرتضى نفسه وأسر ابن حزم !

حين أطلق سراحه لجأ إلى مدينة شاطبة وبقي فيها فترة من الزمن استغلها في الكتابة والتأليف دون ان يكف عن العمل السياسي والدعوة الأموية ويسهم في دعم عبد الرحمن الخامس المطالب بالخلافة .

ونجح مسعى عبد الرحمن وارتقى عرش الخلافة سنة ٤١٤ وتلقب بالمستظهر بالله وأتى بابن حزم وزيراً له . لكنها كانت خلافة قصيرة العمر لم تدم سوى شهرين قتل بعدهما الخليفة الجديد ونفي ابن حزم مرة أخرى من قرطبة وهو يتلمس رأسه .

كانت هذه المأساة فراق ما بين ابن حزم والسياسة آمن بعد ١٢ سنة من معاناتها أن خلافة أوليائه الأمويين سقطت فعلاً . وليس بين أدعيائها من يقيم عرشها أو يستطيع ذلك وأنه ما كان يتصور من حق إلهي فيها ليس إلا وهماً وانتهى ابن حزم الموزع حتى الآن بين السياسة والأدب إلى هجر السياسة إلى الأبد . والانصراف حتى عن الأدب الصرف إلى دراسة الدين والفقه ! كرس وقته كله لهذا الفرع العلمي بسبب ماظهر مرة في المسجد من جهله بفروض الصلاة .

كشف هذا التحول عن ميزة من أهم الميزات في شخصية ابن حزم هي الإخلاص للذات والعمل بما يعتقد أنه الحق . لا يهمه ما قد يقوله الناس فيه ، وكما كان في السياسة مع الأمويين يجدف ضد التيار صار في الدين يقوم بالعمل ذاته . آنس من نفسه الميل للمذهب الشافعي ، فصار شافعياً غير آبه لكثرة الناس الذين كانوا في الأندلس على المذهب المالكي . وبعد سنوات حين اقتنع بالمذهب الظاهري الذي يأخذ بالمعنى اللفظي الظاهر للقرآن صار ظاهرياً . وقامت قيامة الفقهاء المالكية عليه فلم يؤثر ذلك عليه حتى كأنما كارثته السياسية قد لحقته في الدين . ظل على رأيه لا يرجع عنه بل أقبل على

الجدل فيه ومهاجمة خصومه . صب كل سخيمته السياسية الفاشلة في المنحى الديني كأنما كان يحاول الانتقام لهزائمه في السياسة بتحدي الكثرة الكاثرة في مجال الدين والشرع . انقلب داعية صلباً للمذهب ...

طاف ممالك الطوائف يدعو ويجادل وتناثرت بينه وبين الفقهاء المساجلات والمناظرات وكان يكشف فيها عن فكر متمكن من اللغة والأدب والتاريخ والحديث والفقه ومن المنطق والفلسفة والإطلاع الديني الواسع . وكان إذا أعوزه الأمر يحرف الكلم عن مواضعه أو يلجأ إلى الألفاظ الحادة المثيرة لاخصامه . وانفض الناس من حوله بتأثير الفقهاء فكان يسخر منهم بعبارات قاسية موجعة بسبب شدة اعتداده بنفسه وبعلمه . وكانوا بالمقابل يحذرون الناس منه ومن قربه ويدسون عليه لدى الأمراء فلا يقربونه ...وأغلقت في وجهه الأبواب ومنع من التدريس في المسجد الجامع وشعر أنه في غربة كاملة بل في عزلة تطوقها العيون المزورة والجباه المتجهمة !

وتلاحق في نفسه بعد الفشل السياسي الفشل العلمي وهو يعتقد أنه في الحالتين على الحق . والناس ينكرون ذلك عليه . حتى إن المعتمد بن عباد صادر كتبه وأحرقها . فلم يكن له سوى رفض هذا المجتمع الناكر للجميل والاعتزال . انزوى في موطن أسرته القديم منت لشم (جبل لشم) وهي بُليدة قرب ولبة وفي هذا المعتزل كان يأتيه بعض الطلاب رغم نصائح شيوخهم لهم بترك الأخذ عنه . في هذا المنزل أنهى حياته بعد أن أوفى على السبعين تاركاً وراءه ٤٠٠ مجلد من تأليفه في التاريخ والفقه والحديث والنسب والأدب وفي كل ميدان من ميادين العلوم . وما من غرابة في ذلك فقد كان كما قالوا : من أكثر خلق الله كتابة وتأليفاً .

وإذا كان الكثير من تأليفه مما شاركه الناس في مثله إلا إن له مؤلفين تفرد بهما : الأول كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف وهو كتاب في تحليل الحب عمقاً وموضوعاً وتسلية . ما كتب أحد قبله مثله بحث فيه أنواع

الحب وآفاقه من الحب الإلهي إلى حب المتعة والحب المتعفف ! الثاني كتاب الفصل في الملل والنحل وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب سبق فيه الملل والنحل للشهرستاني . عرض فيه لشتى مذاهب الفكرالبشري في موضوع الدين من الإلحاد المطلق إلى إيمان العوام ...

وترك ابن حزم من بعده دوياً في الفكر استمر خمسة قرون !

ترى في المعيار الإنساني هل نجح ابن حزم أم فشل ؟

ابـن الأبـار ذو الحـظ العاثـر

إذا كانت الدنيـا حظوظاً فهذا الرجل ابن الأبار سيىء الحظ لدرجة تدعو للرثاء . ومع أنه أكبر مصنف لمعاجم الرجال أطلعه الأندلس ومن أعظم أقطـاب الرواية والتـاريخ فيها . فما من أحد عدا الباحثين يذكره كوجه من وجوه الفكر الأندلسي البارزة . ولعل ذلك لأنه عاش حياته في القرن السابع الهجري / ١٣ م . عصر انهيار الأندلس واستيلاء الإسبان على معظم مدنها الكبرى . وعاش هذه الحياة مغموراً وأنهاها نهاية فاجعة . وكان فتى يافعاً يوم وقعت معـركة العقـاب التي دمر بها الجيش الإســلامي الموحدي عن آخره سنـة ٦٠٩ وذهبت معـه الآمال بإنقاذ الأندلس ثم قتلَ ابن الأبار وجيوش الإسبان تحتل المدن الأندلسية ، وتطرد العرب المسلمين منها . وبين هذا وذاك عمل كاتباً لدى أمير من الموحدين في بلنسية هو أبو عبد الله بن أبي حفص حفيد السلطان عبد المؤمن الموحدي فما إن أخرجه أمير آخر اسمه زيان بن مردانيش حتى اصـطحب هذا الأمـير المـوحدي كاتبـه ابن الأبار إلى ملك برشلونة وقاطالانية والآراغون خايمه الفاتح الذي افتتح جزر مايورقة ومينورقة من المسلمين عنوة . وفي عزمه الاستنجاد به والتحالف معه ولو ارتد في سبيل ذلك إلى النصرانية ! وترك ابن الأبار أميره . وعاد إلى بلنسية ليخدم خصمه ابن مردانيش . وطال الأمر حتى تغلب القاطالانيون على البلد سنة ٦٣٣ . وهاجر ابن الأبار هارباً إلى تونس ليخدم هناك المستنصر الحفصي ...وهناك لقى أفجع مصرع ! بعد حياة مليئة بالمنغصات .

شهد ابن الأبار في شبابه تقاسم الجيوش النصرانية لأرض الأندلس .

تولى أمراء البرتغال جبهة الغرب الأندلسي والقشتاليون جبهة الوسط أي حوض الوادي الكبير في حين اختص أصحاب مملكة آراغون جبهة الشرق . واتفق أن أعمار ملوك هذه الدول الثلاث كانت طويلة فقد حكم ملك آراغون ٦٣ سنة حتى سنة ١٢٧٦ وملك قشتالة الفونسو الثامن ٥٦ سنة وملك البرتغال فرناندو الثالث وهو من أشد الملوك تعصباً للصليبيات ٣٥ سنة . في حين كان الأمراء على الجبهة الإسلامية مجرد مغامرين تافهي الأحلام يتكالبون على حكم المدن المتفرقة وإن لم يخل بعضهم من مروءة ونجدة .

كان ابن الأبار أول أمره يعيش على هامش هذا البحران السياسي ، مطوفاً في أنحاء الأندلس يدرس ثم عاد إلى بلده ليصبح كاتباً لدى أميرها الموحدي أبي عبد الله بن أبي حفص الذي عرف بقلة الإخلاص وممالأة الإسبان وشدة الأنانية والحرص على الملك بأي ثمن . واحتمل ابن الأبار كل ذلك من أميره لكنه حين خرج به إلى خايمه صاحب الآراغون يريد التنصر غادره ابن الأبار وعاد صامتاً ليخدم خصمه ابن مردانيش . فهم أن عصره عصر إدبار فآثر الصمت وفي النفس ما فيها . وحين جاء خايمه يحاصر بلنسية كان ابن الأبار في حوالي الأربعين من العمر ومن شخصيات البلاط فأرسله ابن مردانيش في وفد سفيراً إلى المستنصر الحفصي يستنجد به . وهناك أنشد ابن الأبار بين يدي المستنصر قصيدة تجلت فيها مرارته كلها من الأوضاع ويأسه من المصير مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى إنقاذها درسا !
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً للحادثات وأضحى جدها تعسا !!

وأدت السفارة مهمتها خير أداء وأعد السلطان أسطولاً من السفن شحنه بالمؤن والذخائر والجند ...لكن الشاعر يقول : وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل . وجد الأسطول أن ميناء بلنسية محاصرة أشد الحصار والمدينة محاصرة بالمتطوعين من فرنسا والطليان ومن التجار ومعسكر الآراغونيين كأنه

مدينة كبيرة تجمع كل جنس في حين كان سكان المدينة قد أشفوا على الهلاك من الجوع وقلة الأقوات وقرروا التسليم . وتراجع الأسطول الحفصي إلى دانية فيما كان ابن الأبار التعس يكتب بيده صك التسليم .

كانت هذه التجربة السياسية الثانية الأليمة لابن الأبار وأقساها وكما بكى غيره بكى . وكتب يقول : أما الأوطان فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد . أين بلنسية ومغانيها وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلي رصافتها وجسرها ؟ أين أفياؤها تندى غضارة ؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها ؟ أين جناتها النفاحة وشمائلها . شد ما عطل من قلائد زهرها نحرها . فأية حيلة لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان ؟

وحاول ابن الابار أن يجد عملاً في بعض المدن الأخرى فانسدت بوجهه الأبواب وبقيت رسائله دون جذب . وبعد عشرة أيام من سقوط بلنسية كان يتحمل على الشراع في البحر إلى تونس ! حسب أنه سيلقى هناك الذي لقيه وهو سفير . لم يدرك أن الأشرعة التي كانت تبعده عن أرض الأندلس كانت تبعد عنه آخر أيامه الحلوة . ولم يدرك أكثر من هذا أن جلاءه وجلاء غيره من أمثاله هو الذي يفرغ الأندلس من الرجال ويهدد مقاومتها ويسلمها للعدو .

ونزل تونس فاستقبله هناك الحسد والمرارة والحظ التعس . نزل في بجاية أولاً وانتظر ثلاثة أشهر ونيف حتى أتاه الرد بأن ينتظر حيث كان . كان الوافدون من الأندلس أفواجاً ضخمة وصلت تونس في جو من الضيق والحسد لهم والغيرة من أن يتسلموا دون التونسيين المناصب . ولحق الحسد ابن الأبار وزاده حدة ونقمة وزير المستنصر عليه فقد كتب لهذا الوزير كتاباً يترحم بين طياته على والده فلما نبهوه أنه ما يزال حياً قال : إن رجلاً لا يعرف موته من حياته لرجل خامل وركض السعاة بالكلمة إلى الوزير فملأته نقمة .

هي زلة لسان لكن ابن الأبار كثيراً ما كان يزل لسانه كما كان يدل على التونسيين المغاربة بأنه أندلسي وللكلمة سحرها وتفوقها فما وصل بلاط

المستنصر إلا وقد سبقته مجموعة من النقم ورصيد حسن من الكره والبغض ...وتولى كتابة العلامة على الكتب السلطانية وكان يكتبها بالخط المغربي وكان المستنصر يستحسنها بالخط المشرقي وحين وجد من يقوم بذلك أعفاه منها وترك له كتابة الرسائل . لكنه ظل معتداً بنفسه يكتبها بخطه فلما نبه إلى ذلك رمى القلم من يده وقال :

اطلب العز في لظى ، ودع الذل ولو كان في جنان الخلود !

وركض سعاة السوء بالخبر إلى السلطان فأمره بلزوم بيته . وازداد شعوره بالمهانة والمذلة عمقاً وعنفاً . وأرسل ابن الأبار الرسائل والقصائد يعتذر ثم كتب كتاباً كاملاً في الاعتذار فرضي عنه السلطان على مضض . لكن البغضاء في الحاشية ما لبثت أن تغلبت بالدسائس . وأمر السلطان بنفيه إلى بجاية . ولما أعاده أسخطه بأمر فبعث بتفتيش بيته وحمل كل ما فيه من كتاباته . فقد زعموا أنه يضمر البغض للسلطان . وعاد الأعوان يحملون إليه ما وجدوا ومن ذلك بيت شعر يقول :

طغى بتونس خلف سموه ظلماً خليفة !

وكانت هذه الكلمة القشة التي قسمت ظهر البعير وظهر ابن الأبار . أمر السلطان بقتله قصعاً بالرماح وجمعت كتبه كلها مع أشلائه فأحرقت في الساحة العامة وكانت حوالي ٤٥ كتاباً من تأليفه !

لم يكن ثم توازن بين الذنب والعقوبة ولكنه الحظ العاثر ...

ودفع ابن الأبار ثمن حظه العاثر !

المتسكع الذي قتل وسره معه

أبو نصر الفتح بن خاقان كاتب مشهور القلم جد الشهرة في الأندلس من رجال القرن السادس الهجري ومع ذلك فقد كان أصحاب كتب التراجم يتحامون ذكره أو يختصرون إذا عرجوا عليه وتتساءل عن أمره فيأتيك الجواب إنها نوع الحياة التي عاشها . وندر أن عرف في الأندلس كاتب عاش التسكع المطلق كما عاشه الفتح بن خاقان . وخاقان ليس اسم أبيه ولكن الناس نبذوه بهذا اللقب سخرية وزراية فحياته الأولى محفوفة بالغموض يقال إنه من قرية من أعمال غرناطة ولكننا لا نعرف متى ولد ؟ ونشأ فقيراً فقيراً ولكننا لا تعرف كيف درس فصار من كبار الكتاب والبلغاء . ولقد كان بإمكانه أن ينال من المناصب الكبيرة ما شاء ولكنه آثر على ذلك التسكع ! وقال فيه بعض المترجمين له : كان لا يمل من المغامرة والقصف والإسراف في الملذات . كانت الحياة في نظره حانة خمر ومجلس لهو . وإن التكلم في شأنه وإعمال القلم في وصف تخلعه وخذلانه إخلال بالبيان وإضاعة للزمان لكنا تمثلنا بقول القائل كل الثمار وخل العود للنار ...

والواقع أن حياة ابن خاقان كانت نقلة متصلة كما تنتجع الأباعر مواطن الكلأ . لا تكاد تستقبله بلد حتى تودعه أخرى وبهذا الشكل القلق زار الأندلس كلها براً ومدناً وموانئ وبلاطات ومجالس خلاعة وخمر . ولقد دخل مرة على قاض من أشهر القضاة هو القاضي عياض في قرطبة ورائحة الخمر تفوح منه فتثبت القاضي من ذلك وأمر بحده الحد الشرعي ثم بعث إليه في بيته بثمانية دنانير وعمامة ! وقال الفتح لبعض أصحابه إنه سيسقط اسم القاضي من

التاريخ الذي يكتبه فنصحه صاحبه ألا يفعل لأن إسقاطه يجعل قصة الحد مؤرخة فلا يصح تجاهله والكتاب يؤرخ لمن دونه . فترجم له ابن خاقان ولكن في عبارات مليئة بالصنعة .

هكـذا كانت حيـاة الفتح مبعـثرة على ظهور الدواب وعلى أبواب البـلاطات وعلى أعقاب من يتعاطون الراح من أولي الأمر والكبراء يسـألهم العطاء ولست تدري أكان ذلك عن يأس مصيري أم عن تهتك أصيل ونفس خليعة ؟ ولكنه كان يطلب الرفد والمال بصورة تتسم بالصغار حتى هان قدره وابتذلت نفسه وساء ذكره . وكان يخيف الناس بطول لسانه واشتهر بذم أولي الأحساب والطعن بالأدباء والكتّاب . ولقد اتيحت له الحياة الكريمة أكثر من مرة فكان يطرد من عمله لتهاونه وإهماله وكثرة خمره ولامبالاته كأنه محكوم بقدر لا يمحى أو مدفوع على منحدرها فلا المنحدر ينتهي ولا هو باذل الجهد للتوقف قبل الهاوية الأخيرة .

على أن كل هذا الذي ذكرنـا عن الفتح بن خاقان إنما كان الجانب الأسود من صورته العامة كان الجانب الذي يبعد بينه وبين الناس لكن كان يقابل هذه الصورة على الجانب الآخر صورة أخرى له لا أبلغ ولا أروع هي التي جعلته شيئاً مذكوراً في دنيا الناس والأفلام وهي الصورة الأدبية له . ثم إجماع على أنه لم يكن فقط كاتباً بارعاً فصيحاً بليغاً ولكن على أنه كان آية من آيات البلاغة في عصره وبمقاييس ذلك العصر . وتقول المصادر عنه إنه مع الكـاتب الآخر ابن بسـام هما فارسـا ميدان الكتابة وكلاهما قس وسحبان والتفاضل بينهما عسير والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعـلقاً وتعشقاً بالأنفس والأبصـار . ولولا ما اتهم به ابن خاقان وأخذ عليه لكان من كبار رجال الحضرة السـلطانية . وقد تميز بحسن السبك واختيار الكلمات ورصانتها مع جزالة في الأسلوب وبراعة معجزة . ويخاطبه مصدر آخر فيقول : لقد استجد الله الكلام لكلامك وجعل النيرات طوع أقلامك

فأنت تهدي نجومها وتردي برجومها . فالنثر من نثرك والشعر من شعرك . والبلغاء لك معترفون وبين يديك متصرفون وليس يباريك مبار ولا يجاريك إلى الغاية مجار إلا وقف حسيراً ....

وهكذا كانت صورتا الفتح بن خاقان : الصورة الحياتية الدنيا والصورة الأدبية العليا تتناوبان الأطلال على الناس مرة في شكل شيطان قذر سليط ومرة في شكل أديب رائع القلم والبيان . فكأنما كان ابن خاقان زهرة رائعة ثابتة في مستنقع . وإنه ليذكرنا بخضراء الدمن وهي الحسناء في منبت السوء تغريك خضرتها الغنية المخضلة رغم أن تحتها الدمنة العفنة . ولو أن حياة الفتح كانت من نوع كتابته وطريقتها لكان من أكرم الناس في الناس ولبلغ الشأو الذي ما يبلغه شأو . ولو أن كتابته بالعكس كانت من نوع حياته في مستواها وطريقتها لكان من سقط الناس ومن الهمل المنكورين فيها لكن الله شاء أن يجمع فيه شخصين معاً كاتباً رائعاً ومتسكعاً دني النفس ووهبه قلماً في القِمة وحياة في القُمة !!

كتب ابن خاقان في حياته عدداً من الكتب الأدبية لعل أهمها : كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان ترجم فيه بالطبع لمن أغدقوا عليه العطايا وأهمل الآخرين . ثم كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في حلي أهل الأندلس وهو مكمل للكتاب الأول وضاعت كتبه الأخرى فما توجد .

انتهت حياة ابن خاقان نهاية لا تليق أبداً بروعة بلاغته ومكانته الأدبية وإن كانت تليق بحياة التسكع التي عاش وبسلوكه الحياتي الوضيع . فقد قصد المغرب يستعطي رجاله ثم وجد مذبوحاً في غرفة بفندق بحاضرة مراكش . أواخر المحرم سنة ٥٢٩ وقد مثل به ...

ولم يشعر بقتله أحد إلا بعد ثلاث ليال من قتله . وأشارت أصابع الإتهام والشائعات إلى بعض صدور القوم ، وإلى بعض الحاشية

والغلمان ...ولكن لم يثبت ذلك على أحد ومضى هذا المتسكع البليغ حاملاً سره معه !

أكان ممكناً أن يهتم بمقتله أحد ؟

كيف سقطت غرناطة ؟

قال له صاحبه وهو يحاوره : أنا لا أفهم . لم أعد أفهم ؟

أغمض عينيك واستعرض شريط الأخبار . الأنباء الصليبية تهمي كالسهام المسمومة في القلوب حول البوسنة والهرسك ...وتحار ويحار دليلك ، كيف تسقط هذه البلاد المسلمة بين فكي الذئب الصربي ...

وقال صاحبه : يظهر أنك لم تقرأ التاريخ أو نسيته .

قال : أبداً لم أنس فلسطين . لم أنس جنوبي السودان . ولا أذربيجان وأرمينية ولا الصومال ولا أريترية . ولا ...

وقال لصاحبه : على رسلك . سوف أحكي لك قصة سقوط غرناطة . ولا أمزح ! القصة جرت منذ خمسمائة سنة .

غرناطة الأغاريد والسحر ورنة الغيتار والتنورة الملوحة . وأغنية الخوندا تعبر أصداؤها كل جبال شلير حتى البحر ...غرناطة هذه قتلت قتلاً . لم تكن نهايتها الفاجعة نتيجة شح في الموارد أو اضطراب فيها ولعلها بالعكس أطمعت العدو بمواردها وموقعها الاستراتيجي وما انهارت نتيجة تغير في قاعدتها الاقتصادية أو شيخوخة في الفكر فأعداؤها استعاروا خبراتها الاقتصادية والفكرية سماداً لمناطقهم العقيم . إنما كانت نهايتها ببساطة نتيجة قيام دولة مجاورة صارت أقوى منها بكثير بما انهال عليها من المال والمتطوعين والأدوات الحربية ...كل غرب أوروبا بما في ذلك البابا كانوا يصبون نقمتهم على المسلمين بدعم جيش قشتالة الإسباني وجيش آراغون والبرتغال ...

واقتطعوا من غرناطة مدنها مدينة مدينة . طاردين البشر إلى المناطق

المجاورة عبر البحر : المغرب ، تونس ، مصر ، الشام ، حتى فرنسا والدولة العثمانية ...واشتركت في ذلك بضعة أفكار صغيرة . ولكنها تحققت على الأرض .

أقدمها فكرة استرداد الإسبان للأرض الإسبانية . إنهم يبدؤونها بحادث جرى سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ حين اعتصم ثلاثون من محاربيهم في الشمال في كهف كوفادونغا يحاربون . وأهملهم الجيش العربي . ماذا يمكن أن يفعل ثلاثون مقاتلاً ؟ لكن حرب الاسترداد ظلت كامنة حتى جاءت الحروب الصليبية في آخر القرن الخامس الهجري ١١ م وبدأت في إسبانيا لا في المشرق . وكانت الحروب التي كان وقودها الناس والحجارة ويقوم عليها أناس شداد غلاظ يعصون الله . كانت تحمل طابع الحرب الدينية ــ السياسية لا طابع الاسترداد ولا طابع توحيد إسبانيا .

هاتان الفكرتان لم يكن لهما وجود في تلك الفترات وإنما وجدتا ونضجتا بعد ذلك وجدت فكرة الاسترداد نتيجة الانتصارات التي حققتها الممالك النصرانية شيئاً فشيئاً .

توحيد إسبانيا النهائي (أعنى إزالة غرناطة آخر أحلام العرب المسلمين في الأندلس) لم يكسب رواجه إلا بعد سقوط مدن الوادي الكبير في أيدي مملكة قشتالة . في أواسط القرن السابع / ١٣ م حين سقطت قرطبة وإشبيلية وجيان . شريش . شذونة . قادش ...جزر الباليار ...بدأت أحلام توحيد إسبانيا كلها ولم يصبح التوحيد أكيداً إلا حين اتحدت مملكتان بزواج ملكة قشتالة بملك آراغون !!

الفكرة الثانية حملها القسس والرهبان والكرادلة . طرأت عليهم منذ زمن طويل لكنهم لم يجرؤوا على إعلانها . حتى إذا فتحت عليهم أمريكا وتعثروا هناك بما يسمونهم الهنود الحمر قفزت الفكرة إلى المكان الأول في الرؤوس والمكان الأول في العمل : لماذا لا ينصرونهم ؟ وانسحبت الفكرة على

« الأعداء الكفار » في إسبانيا نفسها : لماذا لا ينصرون ؟ والفرصة مواتية . وفي تنصيرهم رضى للرب وإرغام للناس على أن يدخلوا الجنة التي يتصورها رجال الدين ...

لقد صارت قشتالة مملكة نصرانية كبرى بما انضم إليها من القارة الجديدة إلى الفليبين . فلماذا لا يكون لها دين واحد ؟ ...وصارت فكرة التنصير في مركز الاهتمام الأول تدفع إليها الكنيسة بالملوك دفعاً ...ولا سيما وأن هناك ما يجعل فكرة التنصير طريقة انتقام ! بلى كانت الدولة العثمانية في تلك الفترات قد اكتسحت الجانب الشرقي من أوروبا . احتلت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وهي صخرة المسيحية الكبرى ألف سنة قبل ذلك وانساحت بعدها حتى طرقت أبواب فيينا ...فلماذا لا ينتقمون من المسلمين بين ظهرانيهم في صليبية من نوع جديد لا تقاتلهم ولكن تجعلهم بالرغم عنهم يقومون بالعماد ويصلبون للسيد المسيح ؟

الفكرة الثالثة تأكد قشتالة والممالك الإسبانية من أنه لا المماليك المسلمون في مصر والشام ولا الدولة الحفصية المسلمة في تونس ولا العثمانيون في البلقان ولا المرينيون ومن بعدهم سوف ينهضون لحماية غرناطة . غرناطة وحيدة ! ما من مملكة من هذه الممالك على قوتها تملك القوى البحرية اللازمة لإيصال النجدات إليها ولو حاولت . وذهبت مع الريح وعصف الموج تلك الصرخات المستغيثة التي كانت تطلقها غرناطة مع كل ريح . كانت تنزل في آذان صماء ...تملك الأسى والإنفعال القاتل ولكنها لا تملك تحويل غيظها وأساها عملاً ونجدات من السلاح والمتطوعين ...وبدلاً من أن يستمعوا قوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ...أعدوا لهم بحراً من الدموع والعواطف !

واشربي من الدمع يا غرناطة حتى الثمالة ...

حاولت غرناطة ، بنوع من يقظة النزع الأخير أن تتحول من الدفاع

إلى الهجوم ...قطعت الجزية عن الأعداء ، وهبت تقاتل باليدين والأظافر . وقال ملك غرناطة لرسل ملك قشتالة الذي جاء يأخذ الإتاوة السنوية المفروضة قل لمولاك إن ملوك غرناطة الذين اعتادوا دفع الإتاوات قد ماتوا وأن دار سك النقود في غرناطة لا تمتلك الآن ذهباً ولا فضة وإنما تسك سيوفاً ورماحاً . ويقولون إن فرناندو الملك القشتالي غضب حين سمع ذلك وقال :

غرناطة ...غرناطة ...سوف أفرط حباتك حبة حبة ...

ومعنى غرناطة بالإسبانية الرمانة ...وفرطها حبة حبة لأنها أساءت فيما يبدو تقدير الظروف الدولية . وكانت ضدها ...

وهم صاحبه أن يقول :

ــ إنها قصة البوسنة والهرسك ...

فقال لصاحبه : بلى هي غرناطة هذا القرن ! ولكنها الغرناطة العشرون !!

وانتصر التنصير !!

كلمة أخيرة

ما حكينا عن الأندلس شيئاً في هذه الصفحات . القصص التي ذكرت إنما هي فتات وصور متقطعة . وما قصدت أن تقول إلا أن الأندلس تمر في تاريخنا العربي كأطياف المهووس. تبين تارة وتختفي أخرى على إيقاع قيثارة مجنونة . على أنه وجودها في الحلم ليس أقل حقيقة من وجودها في الواقع . وهي بين هذا وذاك رجال وأحداث ومعارك وفكر كالشموس ، وسنابك خيل ، وسيوف متكسرة ، وأشلاء اهترأت في القلاع ، وعروش من ذهب ودخان ...كانت الأندلس حياة للناس كاملة واختفت ...ولقد يخيل إليك أنك تسمع أصداء الأذان في أزقتها . ولا مؤذن ولا مآذن !

وإذا غادرها أبو عبد الله الصغير بدمعة حرى عند منعطف الجبل فما من عربي يزور الأندلس إلا ويحس وقع هذه الدمعة في صدره .



المحتـوى